فى حضرة الرئيس [1]

ملء السمع، ملء القلب، ملء البصر، لو حاول بكل جهده ألا يكون رجلاً عظيمًا ما استطاع، وهيهات لامرئ أن يملك عن نفسه ما شاء له الله! وقد سوّى الله له هذه العظمة من يوم مَدْرَجه: فكان طالبًا عظيمًا، وكان مِدْرَها عظيمًا، وكان قاضيًا عظيمًا، ثم تناهت إليه زعامة أمة فهو فيها ملءُ السهل والجبل.

بَحسْبك أن تراه لتعرف أنه سعدٌ ولو لم يومئ إليك أحد بأنه سعد ، وكيف يختلط عليك أمره وهذه يد القدرة قد دلت عليه بدلائل تنبئك بأنه ، وإن كان من الناس، إلا أنه أعظمُ الناس.

بسطة فى العلم والجسم ، بسطة فى العقل والحلم، وعزم تتزايل الجبال دون أن يتزلزل، ويقين تتحول الأرض عن مدارها ولا يتحوّل ، ومنطق يصول فى الجلَّى حتى لتحسبها الجحافلَ [2] قد تداكّت بسيوفها وعواليها، ويلطُف فى السَّمَر حتى لتتمثل أسراب الكواعب وَسْوَستْ حليها وتضوعت منها غواليها.

وما إن رأيت ولا سمعت برجل فسح الله تعالى له فى البيان وأمكنه من نواصى الحجة كما فَسح لسعد ومكّن لسعد. ولقد تتقدم لمباراته فى الأمر تظن أنك قد بلغت منه الغاية ووقعت على الصميم وتمنَّعت منه بالحصن القوىّ، فما هو إلا أن يرسل عليك الحجة حتى ترى أنه ملك الرأى عليك من جميع أقطارك، وأنك سُرعان ما وقعت أسيرًا فى يديه تتقلب فيهما تقلبا، وهيهات لك الخلاص إلا بأن تنزل فى أمرك على الإذعان والتسليم!

---

(١) نشرت بجريدة الأهرام الصادرة فى ١٧ أكتوبر سنة ١٩٢٦ عقب زيارة محرر المرآة لدولة الرئيس الجليل سعد باشا زغلول بمسجد وصيف.

(٢) الجحافل : جمع جحْفَل: وهو الجيش الكثير.

وإن أنس لا أنس ليلة مضت من عشر سنين حاور فيها مستشارًا كان فى محكمة الاستئناف، معروفًا بشدّة الجدل، فى مسألة فقهية، وكلما انحط الرجل فيها على رأى أزعجه سعد فطار إلى غيره، حتى إذا ظن أنه تمكن فى أُفْحُوصه [1] ثار عليه بالحجة فوثب إلى سواه، وما زال به صدرًا من الليل ينشُره ويطويه، وينقله من رأي إلى رأى ، ويحوّله من قول إلى قول، حتى داخ الرجل ووهَن، ولم يبق فيه فضل لحِوار ولا جدل!

ولا أدرى أكان ذلك من سعد مجرّد تَهَدٍّ للرأى وتعقّب لموطن الصواب، أم أنه إنما كان يتلعَّب بالرجل تلعبًا لينزله على معرفة قدره ، ففى نفس ذلك المستشار غرور وفى أنفه ورم! أم هى المخيلة [2] تبعثها فى النفس شدّة التمكن من النفس، وإنه ليلذّ لها أحيانًا ألا تمتعك بذلك الواقع الذى اطمأننت به والحق الذى استرحت إليه، فما هو إلا أن تصول بالحجة عليك حتى ترى أنك إنما كنت تقبض على الهواء، وأن صَرْحك الذى أقمته تفرق عنك تفرق الهَبَاء، فتتولى منخذلاً عن يقينك وقد ضربك الشك: أكنت مخدوعًا عن الواقع؟ أم أن هذا الواقع دون قوة سعد فهو يصرّفه بحجته كيف يشاء؟.. لا أدرى يومها ماذا كانت إرّبة الجبار. والله أعلم!

وسعد قد علت به السنّ وشاب رأسه، على أنه، بسط الله فى عمره، مازال يمرح من فطنته القوية فى أفتى الفتوّة وأمرع الشباب، ولو كُتب لك الظفَر ساعة بمجلس هذا الذى دوَّت الدنيا كلها بمجده لنعمت بما لا يلحقه الوصف من عذوبة طَبْع فى عذوبة مجلس، وحديثٍ كأنه قطع الروض رَفَّ [3] آسُه ونِسْرينه، وتضوّع [4] ورده وياسمينه، وبديهة كأنه يقرأ منها فى

---

(١) الأفحوص: مجثم القطاة وهو الموضع الذى تفحص التراب عنه لتبيض فيه.

(٢) المخيلة : الكبر.

(٣) اهتز من نضارته.

(٤) تضوع : اشتد ضوعه واكتمل.

كتاب، وكأنها تستوحى الغيب فليس بينها وبين الغيب حجاب، ونادرة تُشيع فيك الطرب، وتهزك من إعجاب ومن عجب، إذ هو فيما يرسل من القول، فى جدّه ومُزاحه، لا يعدو ما ينبغى له من تحشم ووقار.

وإنه ليقبل عليك بكل لطفه حتى يُفْرِخ روعك [1] ، ويَفْسَح لك فى جوانب القول لتقول، وأنه ليباريك فى منزعك، ويدارجك فى حديثك إلى أن يرسلك على سجيتك ويسترسل معك، حتى إذا اطمأننت إليه وظننت إنك فى مساجلة رجل مثلك، خانته عبقريته، فوثب به ذهنه إلى ما لا يتعلق به ذهنك، فإذا أنت قد طرت كل مطير، وإذا الطبيعة تأبى برغمك ورغمه إلا أن تشعرك أنك في حضرة سعد زغلول!

يا لله من هذا الرجل ! وأنه ليَعْرض فى الأمل فيقول فيه مقالاً، وإنك لتقدّر له بادئ الرأى غاية ما تعاهد الناس من حجة ،وأقصى ما تعارفوا من دليل، فإذا هو قد وقع فى تدليله على ما لم تقع عليه ظنون الناس، وارتفع إلى ما لم تتعلق به أذهانهم ففتح فى المنطق فتحًا جديدًا وأتى بما يبهر ويروع، وكيف لسعد ألاّ يرتفع على مذهب حجة الناس، وقد رفعه الله على الناس؟

وسعد وافر الشعور بعظمته، مزدحم الشعور بأنه إنما يتحدّث على آمال أمة، فهو مهما بارى المجلس فى فنون أحاديثه ومهما تدلَّى به السَّمَر إلى تلك الأسباب الدائرة بين الناس، يرفِّه بذاك عن نفسه وعن صحبه، يَطفَر

---

(١) أفرخ روعك: أذهبه عنك ، يقال: أفرخ روعه خلا قلبه من الهم.

الفَيْنة بعد الفينة إلى حديث الوطن فيشك فيه معنى جليلاً، ثم يعود فيصيب ما شاء الله من حديث القوم، أعلمت أن سعدًا لا يصلح إلا للوطن، وأن الوطن لا يصلح إلا بسعد؟.

أريد أن أكتب عن سعد، ومن الغرور أن أظن بقلمى الوفاء بوصف سعد مهما تفرّج له فى جوانب البيان، فإن البيان إنما يجرى فى غايته إلى ما تعاهده الناس من الطبيعة ومن الناس ! أما تلك النفحات الإلهية التى يرسلها الله تعالى فى العصور الطوال ثِنْيًا [1] بعد ثنى ليقيل أهل الأرض الزلة، ويهديهم من الضلّة - فذلك ما تَعجز عنه اللُّغى [2] ويقصر من دونه البيان.

وبعد فإذا أردت أنْ تصف للناس سعدًا فلن تستطيع أن تصفه بأبرع من لفظة (سعد) فقد جمعت من وجوه المعانى ما لا يبلغه الكلام، وإن قدَّرته العقول وتعلقت به الأفهام.

(١) وقتًا بعد وقت.

(٢) جمع لُغَة، وهى تجمع أيضًا على لُغَات ، وهى أصوات يُعبر بها كل قوم عن أغراضهم.

obeikandl.com

لإنقاذ ما يمكن إنقاذه ...

obeikandl.com

زيور باشا [1]

أما شكلُه الخارجيُّ وأوضاعه الهندسيةُ ورسم قطاعاته ومساقطه الأُفقية فذلك كله يحتاج فى وصفه وضبط مساحاته إلى فنٍّ دقيق وهندسة بارعة. والواقع أن «زيور باشا» رجل - إذا صح هذا التعبير - يمتاز عن سائر الناس فى كل شىء، ولست أعنى بامتيازه فى شكله المهول طولَه ولا عرضَه ولا بُعدَ مداه، فإن فى الناس من هم أبدن منه وأبعد طولاً وأوفر لحما، إلا أن لكل منهم هيكلاً واحدًا، أما صاحبنا فإذا اطّلعت عليه أدركت لأول وهلة أنه مؤلَّف من عدَّة مخلوقات لا تدرى كيف اتصلت ولا كيف تعلَّق بعضُها ببعض، وإنك لترى بينها الثابت وبينها المختلج، ومنها ما يدور حول نفسه ومنها ما يدور حول غيره، وفيها المتيبِّس المتحجر، وفيها المسترخى المترهِّل. وعلى كل حال فقد خرجت هضبة عالية مالت من شعافها إلى الأمام شعبةٌ طويلة أطلَّ من فوقها على الوادى رأس فيه عينان زائغتان، طلَّةَ من يرتقب السقوط إلى قرارة ذلك المهوَى السحيق! [2] .

---

(١) هو أحمد بن زيور رحمى باشا: من رؤساء الوزارات بمصر، ولد فى الأسكندرية سنة ١٨٦٤م ، وتعلم فى بيروت وفرنسا، ثم تولى أعمالاً نظامية وإدارية إلى أن كان رئيسًا لمجلس الوزراء ، فرئيسًا للديوان الملكى، ووصم بالضعف أمام السلطات الأجنبية وغيرها أيام حكمه ، ووصف بأنه أداة للتسليم والمسالمة، واتخذت منه الصحف موضوعًا للضحك والتندر بسبب ضخامة جسمه، فكان هو يضحك مما يُكتب عنه ويطلب الاستزادة، وكان يجيد العربية والفرنسية والتركية ، ويفهم الإنجليزية والإيطالية. توفى فى الأسكندرية سنة ١٩٤٥م. انظر الأعلام للزركلى (١/ ١٣٠).

(٢) تناولت مجلة الكشكول زيور باشا بالتحليل مقتفية أسلوب عبد العزيز البشرى فقالت فى عدد ٢٢ يونيو سنة ١٩٢٦م : لعلك ممن سمعوا خرافة عوج بن عنق وكيف كان طويلاً حتى لترسو رجلاه فى التراب ويستقر رأسه فوق السحاب ، وحتى يتناول السمكة من قاع البحر ويرفع بها يده فيشويها فى عين الشمس. ثم لعلك أنكرت من هذه الخرافة أنها غير معقولة ولا سائغة فالآن كيف تحكم وهذا زيور باشا له من الطول والعرض شىء يمت به إلى عوج بن عنق بسبب موصول ونسب صحيح. =

وإنك لتجد ناسًا يصفون زيور بالدهاء وسعة الحيلة ، بينما ترى آخرين ينعتونه بالبساطة وقد يتدلَّون به إلى حدّ الغفلة ، كما تجد خلقًا يتحدثون بارتفاع خُلقه وتنزهه عن النقائص، إذ غيرهم ينحطون به إلى ما لا تجاوره مكرمة ولا يسكن إليه خُلق محمود!

كذلك «زيور» عند الناس مجموعةٌ متباينة متناقضةٌ متشاكسة : فهو عندهم كريم وبخيل، وهو شجاع ورِعْديد، وهو ذكى وغبىّ، وهو طيب وخبيث، وهو داهية وغِرّ ، وهو عالم وجاهل، وهو عَفٌّ وشَهْوَان، وهو وطنى حريص على مصالح البلاد، وهو مستهتر بحقوق وطنه يجود منها بالطارف والتِّلاد!!

كل أولئك «زيور»؛ وكل هذا قد يُضيفه الناس إلى «زيور» فلا تكاد تسعهم مجالسهم بما يأخذهم فيه من الدهشة والاستغراب، وإذا كان هذا مما لا يمكن فى الطبيعة أن يستقيم لرجل واحد فقد غلط الناس إذ حسبوا «زيور» رجلاً واحدًا، والواقع أنه عِدَّة رجال، وعلى الصحيح هو عدة مخلوقات لا تدرى، كما حدّثتك، كيف اتصلت ولا كيف تعلَّق بعضها ببعض ! فإذا أدهشك التباين فى أخلاقه ، وراعك هذا التناقض فى طباعه، فذلك لأن

= وأقسم كلما رأيت زيور مرة تحدثنى نفسى أن أقف بين يديه، أستغفر الله، فيداه مدلاتان فى أعلى الجو كجريدتى النخلة أو كحبل الشراع، وأنا منهما كالنملة السارية أو كالذرة الراسبة بل تحدثنى نفسى أن أرفع بصرى إلى حيث ركب الله أذنيه على جانبى رأسه وأصيح بما فى طاقتى من صياح مرفوع وأصرخ بما يبلغ إليه إمكانى من صراخ مسموع: أيها المخلوق الهائل بحق من أسكنك الهواء وجعل هامتك عتبة للسماء هات لنا ما ترى وتسمع من أنباء أخيك زحل، وأخبرنا الخبر اليقين عن أبناء عمنا سكان المريخ. وزيور باشا إن كان جبلاً فأنت تسير فى سفحه مائة عام، وإن كان سهلاً فأنت تضرب فى فضائه الأخبية والخيام، وإن كان بحرًا فهو قادر أن يبتلع البر فى جوفه، وإن كان برًا فهو ضمين بأن يشرب البحر حتى ينكشف قاعه، وإن كان معدنًا فهو منجم لا ينفد ، وإن كان محصولاً فهو مخزن لا يفرغ، وإن كان آدميًا فهو قبيلة، وإن كان جنا فهو طائفة غير قليلة، وإن كان واحدًا، فهو زحمة بين الأرض والسماء، وإن كان متعددًا فأين مصلحة الإحصاء ، وإن كان بلدًا فهو ميت حجيش وإن كان شيئًا فهو لافيش ولا عليش.

هذا الجرم العظيم الذى تحسبه شيئًا واحدًا مؤلفٌ فى الحقيقة من عدَّة مناطق لكل منها شكله وطبعه وتصوّره وحظه من التربية والتهذيب: فمنها العاقل ومنها الجاهل، ومنها الحكيم ومنها الغر، ومنها الكريم ومنها البخيل، ومنها المصرى ،ومنها الجركسى، ومنها الفرنسى، ومنها الإنجليزى، ومنها المالطى إلخ، كل منها يجرى فى مذهبه ويتصرَّف فى الدائرة الخاصة به ، فلا عجب إذا صدر عن تلك المجموعة الزيورية كلُّ ما ترى من ضروب هذه المتناقضات !

والظاهر أن «زيور باشا» برغم حرصه على كل هذه المتملّكات الواسعة ، عاجز تمام العجز عن إدارتها وتوليِّها بالمراقبة والإشراف، وما دامت الإدارة المركزية فيه قد فَشِلت كلَّ هذا الفشل فأحرى به أن يبادر فيعلن إعطاء كلٍّ منها الحكمَ الذاتىَّ على أن تعمل مستقلة بنفسها على التدرُّج فى سبيل الرقى والكمال، وحسب عقله، فى هذا النظام الجديد، أن يتوافر على إدارة رجليه وحدَهما، ولعله يستطيع أن يسيِّرهما فى طريق الأمن والسلام!.

وإنى أورد عليك طائفة يسيرة تدلك على ما فى هذه المجموعة الغريبة من ضروب المتناقضات التى تجزم منها بأن ذلك الخَلْق ليس شيئًا واحدًا وإنما هو فى الحقيقة عدةُ أشياء:

فزيور باشا معروف بالقناعة والتعفف عن الابتذال فى إحراز الأموال، ولكنهم فى الوقت نفسه يقولون إن جميع نفقات الولائم التى أقامها فى مصر وفى أوروبا قد تناولها من «المصاريف السرية» بينما هو يقبض من خزانة الدولة ألف جنيه لهذا الغرض فى كل عام !

ومما يحسن ذكره فى هذا الموضوع ما تحدثوا به من أنه لما زار أوربا فى الصيف الماضى طاف بجميع المفوّضيات المصرية هنا فسلَّ كلَّ ما فيها من «المصاريف السرية» حتى إذا علم أنه قد أتى على كل ما فى مفوّضية باريس من هذه الأموال ولم يدع لها قرشًا ولا بارة أرسل تلغرافًا إلى مفوضية لندن لتسعفه بكل ما عندها من النقود!

ولقد تعلم أحيانًا عن «زيور باشا» حرصه على مصالح الدولة، على أنك

إذا عاتبته على إسراف الحكومة فى عهده وابتذالها لأموال الدولة بهذا الأسلوب الفادح أجابك من فوره «أن مصر غنية» (L'Egypt est Riche)!!

ولقد تعرف فى زيور باشا طيبة فى القلب وسلامة فى الخُلق، ثم لقد يظهر لك فيه من المكر وترى له من أنواع الدسِّ ما يَعْيَا بمثله أخبث الشياطين، ولقد ذكروا أنه كلما التقى بسعدى أنَّب قومه على اتفاقهم مع «ألد أعدائهم» الأحرار الدستوريين، وإذا أصاب حرًا دستوريًا قال له:

كيف يصح أن تتَّحدوا مع أولئك «المجانين المخربين» !

ولقد كان شديد الشكوى من «نشأت باشا» وبسطة يده فى كل مصالح الحكومة، فإذا قيل له : وكيف لا تكفّه عن هذا وأنت رئيس الحكومة؟ بسط كفيه ورفع رأسه إلى السماء وأجاب: وهل يستطيع أحد أن يعمل شيئًا؟ فلما أُقيل «نشأت باشا» من السراى جعل «زيور» يُقبل على كل من لقيه يتمدّح بأنه هو الذى أخرجه ووقى البلاد شرًا عظيمًا !

وقد يعرف عنه بعض الناس قِلة الخير ومع ذلك فإن له صاحبًا ورفيقًا من رفقاء الصبا هو (ص بك غ) وله ولد يطلب العلم فى باريس فعينه فى مفوضية باريس فى وظيفة غير موجودة!

وعلى هذا الصديق دَين لبعثة المرسلين الإفريقيين فى مصر وقد استبهظ الربح فوسَّط فى الأمر صديقه زيور باشا الذى قصد إلى روما فى تَجْواله بأوروبا فى العام الماضى، ومع ما يُعرف عن دولته من أنه خرِّيج «مدارس الجزويت» وأنه أخذ عنهم الدهاء والمكر وبُعْدَ غَوْر النفس، فقد طلب مقابلة قداسة البابا نفسه وخاطبه فى الأمر وسأله التخفيف من دَيْن صاحبه، والبابا أحاله على وزير خارجيته الكاردينال جاسبارى، وبعد أن سمع هذا من رئيس وزراء مصر كلَّ ما أراد أن يقول هز كتفيه وقال له : (Chi Rccevato Paga) أى «على من أخذ أن يدفع» وكان على زيور باشا أن يعرف ذلك !

تلك بعض آثار هؤلاء الذين يدعونهم «زيور باشا»، فإذا تمثّلوا شخصًا وبَدَوا للعيون رجلاً واحدًا فذلك مصداق قول أبى نواس:

وإن أهل مصر ليأخذون زيور باشا كلَّه بما لا يُحصى من الجرائم على القضية الوطنية، وإنهم ليعدّون عليه سفهه فى أموال الدولة واستهتاره بمصالحها، وإنهم ليحسبون عليه إيثاره الأهلَ والأقربين والأصحاب والمحبين وذوى أرحامهم بمناصب الدولة ومنافعها، وقد يكون لمجلس النوّاب مع هؤلاء الرجل شأن إذا أقبل يوم الحساب!

وإنَّ ظلمًا أن يُؤخَذ البرىء بجريرة الآثم، وإنَّ عسفًا أن يعاقب المظلوم بما أجرم الظالم، فقد يكون الذى اقترف كل هذه الآثام هو كوع زيور باشا الأيسر، أو القسم الأسفل من (لُغْده)[1] أو المنطقة الوسطى من فخذه اليمنى، أو غيرها من تلك الكائنات التى تجمَّعت فى هيكله العظيم، فما شأن تلك المخلوقات كلها تُجَرُّ إلى مواطن الاتهام، وتعاقب بما ارتكب بعضها من الجرائر والآثام؟!

إن الحق والعدل ليقضيان أن يؤلف مجلس النوّاب ، إن شاء الله، لجنة تقوم بعمل التحقيق فى جسم صاحب الدولة فتسأل أعضاءه عضوًا عضوًا، وتحقِّق مع أشلائه شِلْوًا شلوا، حتى يُفَرق منها بين المحسن والمسىء، ولا يُخْلَطُ فى العقوبة بين المجرم والبرىء.

ولعل العضو الوحيد المقطوع ببراءته من كل ما ارتكب من الآثام هو مخ «زيور باشا»، فما أحسبه شارك ولا دخل، فى شىء من كل ما حصل!

وبعدُ فإذا كان هناك وصفٌ جامع وخَلَّة مشتركة لهذه الخلائق التى تجمّعت لجسم زيور باشا حتى انتظمت فيه شَعْبا واحدًا فذلك أنه قسيس جزويتى فى جلد رئيس وزارة مصرى، فقد تربى زيور فى مدارس الجزويت

(١) اللغد: جمع لُغْده، وهى اللحمة بين الحَنك وصفحة العنق.

كما قلت لك، وتخرّج عليهم وتخلّق بأخلاقهم، فإذا رأيت فى طبعه سهولة وفى نفسه بساطة فذلك لبعد غوره حتى لِيُخفي عليك ما فى نفسه من مكر ودهاء!

وفيه صفة أخرى جامعة أيضًا هى شدّةُ احترامه «للبرنيطة» وعملُه على إرضائها بكل الوسائل، فما عُرف أن زيور ردّ فى حياته طلبًا «لبرنيطة» مهما كان حاملها فى الناس، حتى لقد زعموا أن بعض كبار علمائنا الأعلام، مصابيح الدجى وعَمَد الإسلام، بعد ما أعياه الكد والجهد وشدة الطلب والسعى وطول الوقوف بالأبواب، والتردّد بين مختلف الأحزاب، فى سبيل وظيفة خالية عزم أخيرًا على لبس القبَّعة لعله يحظى فى هذه الأيام[1]، بمعونة «زيور» على إفتاء الديار أو مشيخة الإسلام، ومولانا الشيخ المذكور، بوجه خاص، لا يعدم ألف فتوى من الشريعة، تُحلّ له هذه الذريعة.

(١) نشرت هذه المرآة وزيور باشا فى رياسة الوزارة.

لا مُعنى بكل شيء ولا كل عجيب فى عينه بعجيب

obeikandl.com

عدلى يكن باشا [1]

أسمر اللون فى شحوب، إلا أن ما يخالط سمرته من صفرة حلوٌ مستعذب، يمتاز بقليل من الطول وكثير من العرض، فهو بعيد ما بين الكَتفين حتى لتعرفه مولّيا كما تعرفه مقبلاً. مستوى مَعَارِف الوجه، حديد البصر، إذا قُدِّر لك أن يحدِّق فيك شعرت أن نظره لا يستقر على سطحك بل إنه ليتغلغل فى أطوائك ويصل من نفسك إلى كل ما تَضنّ به على الابتذال، وادع ساكن تتجلجل الدنيا من حوله وهو ثابت ثبات الهرم الأكبر، ولقد تجلس إليه تحدثه فى شئون الدنيا فتطالعه بأجلِّ أحداثها فلا يتقبّض ولا يَخْتلِج [2]، إلا أنه يستلقى على كرسيه ثم يدسّ يسراه فى جيبه ويدير بيمناه رِزَمة من المفاتيح، وتحسب أن ذهنه ليس عندك إذ هو عندك كله لا يفوته من حديثك قليل ولا كثير.

وكانت لجنة الدستور، وزاره بمحضرى رجل من أعضائها، فسأله ماذا صنعتم اليوم؟ فقال له كنا نتناقش فى موضوع (كذا). فاستوى «عدلى» على كرسيه ولبث ساعة يتدفق بالحديث فى ذلك الموضوع ويوردُ كل مذاهب علماء الدستور فيه، يعلل كل رأى ويوجه كل مذهب فى بلاغة وفصاحة قول

---

(١) هو عدلى باشا بن خليل بن إبراهيم يكن: من رجال السياسة بمصر، ولد فى القاهرة سنة ١٨٦٤م، وتعلم فى بعض المدارس الأجنبية بها، وتقدم فى المناصب إلى أن كان وزيرًا للخارجية، ثم وزيرًا للمعارف، ثم رئيسًا للوزراء ثلاث مرات فى سنة ١٩٢١، ١٩٢٦، ١٩٢٩، وهو من مؤسسى حزب الأحرار الدستوريين، واتهم فى صلابته السياسية لخلافه مع سعد زغلول، وكان قويًا فى نفسه مهيبًا، رضىَّ الخلق، توفى فى باريس سنة ١٩٣٣م ونقل جثمانه إلى القاهرة. انظر الأعلام (٤/ ٢١٨).

(٢) يختلج: يضطرب.

ودقة تعبير، وخرجنا وصاحبى يضرب كفا بكف، ويزعم لى أنه لو حلف بكل مُؤثِّمة من الأيمان أن «عدلى» كان حاضرَ لجنتهم ما حنث ولا أَثِم![1].

شديد القصد فى حديثه، فإذا أذن الله وتكلّم فهو حلو الحديث رخيم الصوت ، بارع المطلع ، رائع المقطع، يُصيب المَحَزّ ويقع من فوره على اللباب، تشعر أنه خلص إلى الغاية وأصاب صميم النزاع دون أن يعلق بقوله شىء من وَضَر الجدل وما لا تدعو إليه حاجة الكلام.

لعل «عدلى» قد جاوز الستين، وأحلف بدَوْرى أن مصر لو كانت عاشت عيشًا طبعيًا خاليًا من الأحداث والعظائم ما كان له فى الدنيا أثر ، ولا جرى له على لسان جَمْهَرة المصريين ذكر ولا خبر، فلقد نجم «عدلى باشا» فى مناصب الحكومة كما نجم غيره من الناس موظفًا صغيرًا فى وزارة الداخلية، وما برح يتقلب فى فنون الأعمال العامة حتى أصبح وكيل مديرية فمديرًا فمحافظًا للعاصمة فمديرًا لديوان الأوقاف فمتقاعدًا فى داره فوكيلاً للجمعية التشريعية فوزيرًا للمعارف؛ لا يمتاز فى شىء من ذلك إلا بالنُّبل والكبر على الصغائر والترفع عن سفساف الأمور، وكل ما كان له فيما عالجه من الأعمال من صحة الرأى وصدق التدبير وحسن التنظيم، فما كان ليذكر له شىء منها إلا بألسن من شارَفُوه ومن عَملوا معه، أما عظمة «عدلى» وأما شهرته الخالدة على الزمان فهو مدين بهما للجُلَّى وللأحداث العظام، فلولا جَسِيمات الأمور لكان عدلى رجلاً مُدْرَجًا فى عداد سائر الرجال.

---

(١) بعد أن كتب الشيخ عبد العزيز البشرى هذه المرآة عن يكن تناولته مجلة الكشكول وقالت فيه: «رأيته ورأيت الليث: كلاهما فى محبس مضروب حوله، هذا فى سن الحديقة يحتويه قفص من حديد، وهذا فى مجلس النواب يشتمله قيد من نظام وتقاليد، ورأيتُهُ كالليث إذا ربض وكالليث إذا انكمش وانقبض، ساكنًا ولا أدرى أيسكن عن بأس أم يسكن عن وقار، هازئًا ولا أعرف أيهزأ من الناس أم يهزأ من الأقدار، تتساقط الأحداث إلى جانبه ولا يلتفت، وتميد الدنيا أمامه ولا يتحرك ، وتمر به الخلائق فيرميها من عينيه بنظرة، ولو سمعتها لفظًا أذن لعلمت ما بين قلبه والزمن من عراك». راجع مجلة الكشكول عدد ٦ مايو ١٩٢٧م.

ولقد كان وزيرًا للمعارف فى وزارة رشدى باشا فى سنة ١٩١٨ وتهادنت الدول المحتربة الهدنةَ العامة وشمّرت لعقد الصلح وتوقع المتطيرون أن تكون مصر من حصة إنجلترا فى سَلَب تركيا المقهورة، فنهض رشدى ومعه صاحبه «عدلى» وناجيا الإنجليز بأنهما يريدان أن يشخصا إلى إنجلترا ليراجعاها فى حقوق مصر التى ضحت بما ضحت من الرجال والأموال فى نُصرة قضية الحلفاء، وتثاقل الإنجليز عنهما وتعللوا باشتغال ساستهم عن لقائهما بالاستعداد لمؤتمر الصلح، وخاف رشدى وعدلى أن تُفلِتَهما الفرصة، وكرها الصبر على الهَضيمة فنفخا فى الحركة الوطنية من روحهما القوى وراحا يؤازران الوفد المصرى ويشدَّان عضدَه من جهة، ويشرعان الإضراب للموظفين ويَسْتَحْمِسَانِ الجمهرة من جهة أخرى، حتى كان من أمر النهضة المصرية فى سنة ١٩١٩ ما كان ، وتلك أُولى عزائم عدلى التى يحصيها له الجمهور.

وهبط «ملنر» مصر والوفد قائم فى باريس ودارت اللجنة هاهنا وهاهنا لعل أحدًا يعاطيها أو يقاولها، فاستمسك الناسُ كلهم عنها ولم يُواتِها منهم أحد، فعاذت فى النهاية بالثلاثة الأعلام: رشدى وعدلى وثروت، فصارحوها بأنها إن أرادت الجدّ، فلا تفاوض فى شأن مصر غير الوفد، فلتَمْضِ إلى باريس فهناك الحديث، أما فى مصر فلن تجد، مهما طال بها المقام، ثلاثَ قطط تحدّثها فى شأن البلاد!!

وانكفأت لجنة «ملنر» إلى لندن واستشرفت [1] حقًا لمفاوضة الوفد، إذ الوفد لا يتحول إلى لندن دون أن يستبين موضع خَطْوِه، ويريد ، وبين يديه رجاء أمة، أن يعرف فِيم مذهبهُ وأين يقع حديثه؛ وكيف تكون غاية أمره،

---

(١) استشرفَ الشىء : رفع رأسه ينظر إليه ، قال مزرد:

تطاولتُ فاستشرفته فرأيته فقلتُ له آانت زيدُ الأراقم

والمعنى هنا: استعدت للمفاوضة.

فدارت الأنظار كلَّ مدار فلم تقع لهذا المهم إلا على «عدلى» فدعاه الوفد فلبَّى الدعاء وشخص إلى باريس فلندن فمهّد الطريق ووطّأ أكناف السياسة هناك ؛ وكان خير معوان للوفد على أداء مُهمِّه الخطير.

وأَلَّف الوزارة فى صدر سنة ١٩٢١ وشخص إلى لندن فى وفد رسمى وفاوض «كرزن» وأَدْلَى إليه بحقوق مصر وأمانيها كلِّها، وأبى أن ينزل على ما أراد الإنجليز أن يُنزلوا مصر عليه، فقطع المفاوضة وعاد من فَوْرِه مرفوع الرأس موفور الكرامة، وما كادت تستقر قدمه حتى استقال من منصب الوزارة استقالته الكريمة النبيلة.

واليوم وقد تحرّجت الأمور، وتصدّت القوة بكل ما عندها لتنال من مصر فلا يلتفت زعيمها الأكبر إلا إلى صديقه عدلى، وكذلك كان شأن عدلى دائمًا تلتفت مصر إليه كلما نزلت بها الأحداث الجسام.

وبعد فلقد تحسب عدلى رجلاً عظاميًا تلقَّى المجد عن آبائه العظام الفاتحين، والواقع أن «عدلى يكن» رجل عصَامىّ بأجمع معانى الكلمة، وقد لا يَعْدِله فى عصاميّته هذه رجل آخر فى البلاد.

فأنت تعرف أنه ابن نعمة نشأ فى الحسب، وتقلبت أعطافُه فى التَّرَف، وأغناه الله عن طلب العلم وكَدْح الذهن ومطاولة حوادث الدهر، ولِدَاتُه[١] كثير وأكثرهم - وبخاصة فى الزمن الذى نجم فيه عدلى - لا يقع هواه إلا على مُهَارشة الدِّيَكة، ونِطَاح الكِباش، والملاعبة بالحمام، ومعاشرة المتبطِّلين، والافتتان فى وجوه اللذات، والغَبَاء الكامل عن كل ما يَعْنى البلاد، فهل صدّقتنَى أن عدلى رجل عِصَامى حقًا إذ خرج عن هذه البيئة فكوّن نفسه كل هذا التكوين وعارك من الحوادث ما عارك حتى أصبح من أعظم الذخائر التى تعتدّ للُجلَّى فى البلاد؟ وحسبُه ما وصفه به صحفى من أكبر الصحفيين فى أوروبا: أنك حين تلقَى عدلى باشا فكأنك فى حضرة أعظم الوزراء فى «دوننج استريت»[٢] أو فى «كيدورسيه»[٣].

---

(١) لداته: أترابه الذين ولدوا معه وتربوًا.

(٢) مثوى الوزارة الإنجليزية.

(٣) مثوى الوزارة الفرنسية.

وإن من يعرفون عدلى ليعدّون له عيوبًا، ويُحْصُون عليه آثامًا وذنوبًا، وسبحان من تفرّد بالكمال.

ومن ذا الذى تُرْضَى سجاياه كلها كفى المرء نبلاً أن تُعَدَّ معايبُهْ

فهم يحسبون على طباعه أنه ما برح «ابن ذوات» فهو قليل الاتصال بالناس، شديد التحفظ بنفسه عنهم ، لا يزورهم ولا يستزيرهم ولا يستريح إلى مجالستهم. ومهما توافى له إنسان وتعلق بحبه فهو لا يطالعه بالهناء إذا دخلت عليه نعمة؛ ولا بالمواساة إذا مسّه الضر، ولا يَعُوده إذا مرض ولا يشيِّع جنازته إذا مات! وإذا طلبه صاحبه لحاجة عامة أو خاصة حيره وشتَّت سعيه، فإذا أراده فى البيت قالوا له فى «الكلوب» وإذا وثب إلى «الكلوب» قالوا فى البيت . ويحلفون على أن اقتحام قلعة للألمان وقت الحرب العظمى أيسر من زيارته فى بيته!

ولو قد كُتِب لى أن أصبح هيئة سياسية واحتجْتُ فى شأن البلاد سعى عدلى باشا لوكَّلت به (عصبة) من أولاد البلد أولى القوة والفتوة فتسلَّموه فى صباح كل يوم ، وأرادوه على المشى ساعتين فى الأحياء الوطنية، وأكرهوه على أن يُفشى السلام، ويومئ بالتحية لكل من لقيه؛ حتى إذا جُهِد به ردّوه فأجلسوه فى البهو وفتحوا الأبواب بين يديه وكلما دخل عليه زائر بعثوا وجهه بالهشاشة، ويديه بالتحية، ولسانه بنحو :«أهلاً وسهلاً ومرحبًا. زارنا النبى شرفتنا آنستنا » إلخ ثم صفق بيديه فدعا بالقهوة وعرض على الزائر «نرجيلة» فإذا ردّها قدّم له سيجارة فسيجارة فثالثة، فإن كان الضيف موظفًا سأله عن عمله ودرجته ومرتبه، وأظهر له التوجع على تأخره وتقدّم أقرانه، وإن كان زارِعًا أقبل عليه فسأله عن القطن وما عسى

أن يكون قد اعتراه من الآفات، والمناوبات وشحّ المياه؛ ومناطق الأرز وإطفاء الشراقى وسعر كيلة البرسيم اليوم!.. وإذا حضر وقت الغداء - وهنا الكلام - وهمَّ الضيفُ بالانصراف أمسك بطرف ثوبه وعزم عليه ليتغدينّ معه، وحلف جاهدًا أنه لا يجد فى ذلك كُلْفة ولا يتجشَّم[1] فى سبيله مشقة. وأنا بعد ذلك ضامن لدولة الباشا أن الضيف منصرفٌ غير لابث، معتلا بالمرض وضعف البِنْية، أو بالضيف ينتظره فى داره، أو غير ذلك من وجوه التعاليل، ولا يحتمل الباشا من هذه «الكركبة» كلِّها إلا حسن الذكر وسيرورة الأخبار، بما له من رائع الآثار، فإذا ذُكِرت الشجاعة قالوا إنه «عَنْتَر عبْس»، وإذا ذُكر الحلم حلفوا أنه الأحنف بن قيس، وإذا عرض حديث المكارم، أقسموا أنه أجود من حاتم، فإذا كان الكلام فى الفصحاء والمَقَاوِل، زعموا أنه أخطبُ من سَحْبان وائل.

فأما إذا ظلّ سابحًا فى السماء ، فما أقلَّ حظَّ أهل الغَبْراء، من عدلى باشا فى الزعماء.

---

(١) يتجشم: يتكلف ، يقال: جشم الأمرَ، وتجشمه: أتعبه، قال المرقش:

ألم ترَ أن المرءَ يجذِم كفَّهُ ... ويجشمُ من أجْلِ الصديقِ المجاشِمَا

ودعاك حُسدك الرئيس وأمسكوا ودعاك خالقُك الرئيس الأكبرا
خَلفت صِفاتُك فى العيون كلامه كالخط يملأ مسمعى من أبصرا

obeikandl.com

سعد زغلول باشا [1]

رزقه الله بسطة فى الجسم والجاه، فهو ملء، العيون ملء الصدور، بلغ فى دنياه ما دون التحتية [2] ، وأدرك ما وراء الأمنية، إذا غشى مجلسًا وفيه قوم جلوس رأى القومُ أنفسَهم وقوفًا ولم يريدوا، وتنحّوًا عن الصدر ولم يقصدوا، وخاطبوه بالرياسة ولم يتعمدوا ، ورأى سعد نفسه رئيسًا ولم يتطلع، فما جلس سعد مجلسًا فأقيم عنه لغيره. وكذلك كان يقول الأحنف عن نفسه، فسعد طالب العلم الخاملُ الذى لا يعرفه غير شُجَرائِه، وسعد الزعيم النابه الذى تعرفه الأعاظم والعظائم سواءٌ.

إذا وقف سعد يخطب الناس وثَبت الألفاظ من مكامنها وأسفرت المعانى عن وجوهها وتغايرت فى السبق إلى ذهنه ولسانه، فلو أن كاتبًا كتب ما يرتجله ذلك الخطيب لوقعْت منه على أسلوب سَرِىّ رائع ينقطع دونه تنميق الأقلام. فإذا جلس سعد إلى الإنشاء وقعت منه على أسلوب لا يُغبَطُ عليه كاتبه، فلو أن حالفا حلف أن سعدًا الخطيب هو غير سعد الكاتب لَبرَّتْ يمينه.

---

(١) هو سعد بن إبراهيم زغلول زعيم نهضة مصر السياسية وأكبر خطبائها فى عصره ، ولد فى «إبيانة» من قرى الغربية بمصر، وتوفى أبوه وهو فى الخامسة ، فتعلم فى كُتاب القرية، ثم دخل الأزهر، فمكث فيه نحو أربع سنين، واتصل بجمال الدين الأفغانى، واشتغل بالتحرير فى جريدة «الوقائع المصرية» مع الإمام الشيخ محمد عبده، ونُقِل منها إلى وظيفة معاون بنظارة الداخلية، وعندما نشبت الثورة العرابية اشترك فيها وقبض عليه ووجهت إليه تهمة الاشتراك فى جمعية سرية قيل: إنها تسعى لقلب نظام الحكم، فسجن شهورًا، ثم أفرج عنه مبرءًا، واشتغل بالمحاماة، ثم عمل قاضيًا، فمستشارًا، وتولى وزارة المعارف، والحقانية ، وأصبح اسمه رمزًا بعد أن نفاه الإنجليز إلى مالطة بسبب مطالبته بالاستقلال، وكان يُحسن الفرنسية، وهو أول سياسى مصرى أسمع صوته للغرب، له كتاب فى فقه الشافعية مطبوع . انظر كتاب سعد زغلول للعقاد، والأعلام للزركلى (٣٨/٣) ، وقد ولد سعد زغلول سنة ١٨٥٧ وتوفى سنة ١٩٢٧.

(٢) التحتية: الخلود.

يطلع سعد على الناس وهم يرتقبون طلعته ارتقاب المُدْلج [1] الحائر طلوع القمر، فيدانيهم وهو يكادُ يتهدم ضعفًا، على وجهه تجاعيدُ من أثر السنين، فلا يكادون يتلقَّوْنه بالتهليل والتصفيق حتى ترى ذلك الشيخ وقد طوى ماضيه القهقرى فالتقى بشبابه وكأنما وثب من الشيخوخة إلى الصبا، وإذا بتلك التجاعيد وقد امَّحتْ وتلك الأسارير وقد أشرقت، فيخطبهم ما يشاء حتى إذا أفاق من سكرة ضعفه وأسكر سامعيه بخمر فصاحته انكفأ بين التصفيق والهُتاف إلى داره، فقضى فيها ساعة أو ساعتين من سَاعِ الشباب ثم عاوده الضعف شيئًا فشيئًا حتى يدخل فى شيخوخته كما كان، ومن لم يعرف ذلك الرجل العظيم الذى علت سِنُّه وتكامل تمييزه ولم يلابسه فى أطوار حياته لا يشك فى أنه إنما كان يتمارض (أو يتصنع المرض كما يقولون).

ارتاح سعد لمهنة المحاماة لأجل الخَطابة ، وارتاح للزعامة لأجل الخطابة، وهو يرتاح لكل ما فيه منفَذ للخطابة. ولا غرو فقد منّ الله عليه بمَوْهبة عظيمة لا يمنّ بها على كثير من عباده، فهى لا تفتأ تتطلع للظهور فأنَّى أصابت منفَذًا أطلّت منه، فلو أنك عرضت على سعد مُلك الرشيد على أن يهجُر الخطابة لنأى عنه بجانبه ولرجع مُهَرولاً إلى الزعامة فإن أفلتته فإلى المحاماة.

نقل إلىّ بعض خاصته الذين يحجبون بابه أنه استأذن يومًا لوفد من الوفود وكان سعد فى ذلك اليوم لَقس النفس [2] متبرّمًا بالناس لكثرة ما لاقى منهم فقال له اعتذر، فقال إنه يُلحُّون؛ قال فأْذَنْ لهم على أن يسلّموا وقوفًا وينصرفوا ، فأدى إليهم الرسالة ودخلوا؛ وأقسم لى الحاجب أنهم لبثوا فى حضرته ساعة وبعض ساعة وهو لا ينقطع عن الخَطابة.

كنت بحضرته يومًا وقد مَثَل أمامَه وفد من الوفود فمدّ بصره إليهم وقال: من خطيبكم؟ فلما لم يُصب فيهم خطيبًا كاد يُعرض عنهم لولا حاجته إلى مناصرتهم.

---

(١) المدلج: السائر بالليل، وفى الحديث: «من خافَ أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل» .

(٢) لقست نفسه من الشىء: غثت وتضايقت.

لذلك تقرّبت إليه الوفود بالخطباء، وشاع فى نفوس النَّشْء حب الخطابة تشبها بسعد، فكثرت الخطباء، وفى كثرتهم مظهر من مظاهر النهضة الوطنية المباركة، فسعد مدرسة لا تقفل أبوابها يؤمها الطلاب من أنحاء القطر.

إنه يتشدّد فى الحق ولا يترخَّص فيما يعتقد أنه حق، ذلك كان شأنه قبل الزعامة، فلما ملك يومه وأصبح الزعيم الأكبر أبت عليه طبيعة السياسة أن يأخذ دائمًا بذلك التشدّد، فهو إذا وقفت به الحزبية بين الصواب وبين هوى العامة لا يلبث أن يَعدل إلى الثانية تمكينا لسلطانه عليهم، يفعل ذلك وهو يعُدّها فى نفسه على نفسه قبل أن يعُدّ خصومه عليه.

نزل سعد إلى ميدان السياسة وهو يظن أنها كالقضاء سبيلها الحق والعدل، فلما خاض غُمَارها ورأى ما راعه فيها من أساليب المداجاة وأفانين الخِداع هَمَّ بالنكوص لولا أن إيمانًا رسخ فى قلبه ويقينًا ملأ أنحاء نفسه أن صاحب الحق هو صاحب الغَلَب حملاه على الثبات فتدرّع[1] بهما ووطّن نفسه على الكفاح. وقُصاراه أن يَشهَد بعينه دستور مصر وقد سلم لمصر، وأن يرى وطنه مستقلاً تحت ظل الله، فهو يعمل لهذا المقصد الأسمى، ولَشَدّ ما يتكئ فى هذا العمل على نفسه، وما كان ذلك لضعف فى ثقته بمن حوله ولكنه رجل قد بُنى على الجدّ والعمل.

أبت الناس ألا أن سعدًا ضيقُ الصدر، وكيف لا يضيق صدره وإن كان رحيبًا وهو مدفوع بحكم الزعامة أن يقابل كل من يصبُّه عليه أفق السياسة من الزائرين والقاصدين وفيهم ثقيل الظل جامد النسيم، والمُلِحّ الذى يكاد يستلّ بإلحاحه خَيْط النُّخَاع، والمتربّص بزيارته، وذلك الذى تخرج من حديثه ركضًا إلى طبيب الآذان، وذلك الذى يقتلع الكلامَ من فمه اقتلاعًا حتى لكأن نفسك تطلعُ منه على حَشْرجة[2] لا على استماع حديث، دع الجاهل المتصدر والأمّى الذى يدعى فهم ما غاب عن «بسمرك» من السياسة، وما خفى على «نابليون» فى تعبئة الجيوش فى الكياسة. وإنَّ جِلْسة واحدة إلى

---

(١) تدرع بهما : تقدم، فالاتدراع هو السبق والتقدم.

(٢) الحشرجة: تردد صوتُ النَّفَس، وهى : تردد الصوت فى الحلق من غير أن يخرجه بلسانه.

الشيخ (فا.....) لتبغّض الحلم إلى الأحنف، ولتزهّد الزعيم فى كرسى الزعامة. ولو أن أعداءنا فطنوا لذلك لرمَوْا سعدًا فى كل يوم بمثل هذا البغيض حتى يفرّ من الميدان، ونخسَر بفِراره قضية الأوطان.

دخل عليه ذات يوم فى داره بمسجد وصيف شاب من المفتونين فسلم عليه سلام الأكفاء وجلس معه على بساط المساواة ولم يحتشم ذلك المفتون فى جلسته ، فقد جعل يَصْفِر بفمه ويلاعب الجوّ بسلسلة ذهبية كانت فى يده، ولما قضى شهوته من العَبث بحضرة ذلك الشيخ الجليل التفت إليه وقال: يقولون إنك خشن الملمس قريب الغضب ولا أرى فيك إلا حليما، فأجابه سعد وعلى فمه ابتسامةُ الكاظم لغيظه: وكأنك ما جشّمت نفسَك السفَر وجئت لى إلا لتستثير غضبى ؛ قم فلست هناك.

وزارَهُ فى بدء الحركة الوطنية أحد المتطرفين، فتجادل فى أمر من الأمور وحَمِى الجدال، فأغلظ المتطرف القول، فقال له سعد: أتَجْبَهنى [1] بمثل هذا وأنت فى بيتى ! قال : لم أكن فى بيتك ! قال : ففى بيتِ مَنْ إذًا؟ قال: فى بيت الأمة. فسُرِّى عن سعد وقال له : صدقت! إنه بيت الأمة! ومن ذلك الحين أصبحت بيتُ سعد بيتَ الأمة.

وإن صدرا يتسع لما يضيق عن بعضه صدر الدهر لخليق أن يُسمَّى حاملُه حليمًا.

وهو كثير الذّهاب بنفسه، ولم يجئه ذلك من ناحية الزَّهْو كما يزعمون؛ ولكن جاءه من ناحية التمكن من النفس.

جلس إليه أحد أقرانه وكانت بينهما وحشة لشىء قد بلغه عنه، فقال له سعد وهو يحاوره: أعلم يا هذا أننى معجب بنفسى وكيف لا أُعجَب بنفسى وأنا لا أرى من يعمَل غيرى.

يسره أن يؤكَل طعامه وأن تُفشَى داره، ولكن قلما يسرّه أن يخالف رأيه ، اللهم إلا إذا لمح بعين بصيرته أن من وراء تلك المخالفة إجماعًا.

---

(١) جَبَهَ الرجل يجبهه: ردّه عن حاجته، واستقبله بما يكره ، وجبهت فُلانًا: إذا استقبلته بكلام فيه غِلظة وشدة.

يجلس سعد إلى مناظره وفى يد مناظره الحجة قائمة ، فلا يزال به يستلُّها من يده شعرة شعرة حتى تصير الحجة فى يد سعد فيقيمها على مناظره.

يسوءه النقد إلا إذا كان نزيهًا، وأنَّى لهذا البلد بالنقد النزيه!

إن سعدًا يكلف الناقدين شططًا، أنسى أن نصيبه من ذلك نصيب كل نابغة مشهور؛ وكل عظيم مذكور، وقد جاء فى الأمثال «إذا قيل عنك إنك نابغة فودِّع الراحة».

نشأ سعد وفى ثوبه عظيم ، كان فى المحاماة رأس المحامين، وكان فى القضاء رأس القضاة، وكان فى الوزارة رأسَ الوزراء، ولم يكن فى كل أولئك بالرئيس الرسمى اللهم إلا فى وزارته الأخيرة.

فسعد عظيم وهو ابن عشرين، وفوقَ العظيم وهو ابن سبعين، وقد قال أديب من صفوة أدباء مصر: عظماءُ الرجال أمثال الجبال، لا تنتقص الكُهوف ما لها من العظمة والجلال.

حافظ إبراهيم[1]

(١) أشار عبد العزيز البشرى فى مقدمة الكتاب أن حافظ إبراهيم هو الذى كتب هذه المرآة، وأن هناك مرآة أخرى عن الشيخ أبى الفضل الجيزاوى من تحرير كاتب آخر .

obeikandl.com

obeikandl.com

أبو الهـــول :

لى فى ضمير الدهر سر كامن لابد أن تســتله الأقــدار

obeikandl.com

obeikandl.com

عبد الخالق ثروت باشا [1]

لطيف الحجم، دقيق الجسم، لولا بُدُونة دخلت عليه فى السنين الأخيرة؛ طلْق الوجه، عذب الروح، فَكِه الحديث. ولو أنه قدر لك أن تَصحبَه عشرين عامًا دون أن يُقيَّض لك اسمُه ما عرفت قطّ أنك فى صحبة هذا الذى لا يبلغه العَجب.

ويترك فى الدنيا دويًا كأنما ... تداول سمعَ المرءِ أنْمُلُه العشرُ

فلقد تحضُر مجلسَه فيقبل عليك يحدّثك فلا يرتفع بك إلى نفسه وإنما يتدلّى بكل حديثه إلى نفسك، فتراه يُدَارِجك فى قولك، ويكلمك من جنس كلامك، ويباريك على قدر فهمك حتى تنصرف عنه وقد هيأ لك وهمُك أنه مثلُك؛ هذا إذا لَطف الله بعقلك فلم يهيئ لك أنه دونَك!

وإنه إذ يتحدّث إليك لتَخْتلج معارفُ وجهه حتى ليتمثَّل لك فى شخص تلميذ فى السنة الرابعة الابتدائية! وإن حَدَقَتَيْه لتضطربان فى حركة أفقية؛ على أنك لو تفطنت لأدركت أنها ليست حركة الحائر المتردّد، بل إنها لحركة المتعرف المتقرّى الذى يريد أن يستلّ منك ذات نفسك. وإنه ليجُسُّها من جميع أقطارها ليبلُوَها أيُّهَا أهونُ عليه.

---

(١) هو عبد الخالق ثروت «باشا» بن إسماعيل بن عبد الخالق من رجال السياسة فى مصر ولد سنة ١٨٧٣م، وتعلم الحقوق فى القاهرة ، وعين وزيرًا للحقانية ١٩١٤م، ثم وزيرًا للداخلية ١٩٢١م، ثم رئيسًا للوزراء سنة ١٩٢٢، كانت تنقصه الروح الشعبية ، وفى عهده صدر تصريح ٢٨ فبراير الذى كان أوله : «وانتهت الحماية البريطانية على مصر، وتكون مصر دولة ذات سيادة مستقلة، وتحولت مصر من سلطنة إلى مملكة» ، وألف ثروت الوزارة مرة ثانية سنة ١٩٢٧ ، وأصيب بمرض السكر، فاعتزل السياسة ، وتوفى فجأة فى باريس سنة ١٩٢٩، ونقل جثمانه إلى القاهرة. انظر الأعلام للزركلى (٣/٢٩١).

ولقد يخّيل إليك لطف ثروت وتبسّطه فى حديثه معك أنك مستطيع أن تدسّه فى جيبك إذ هو قد دسَّك من أول المجلس تحت نابه! فاحذَره أطلقَ ما يكون وجهًا وأنعم حديثًا[1].

لعلَّ ثروت باشا أبعدُ المصريين نفسًا وأعمقُهم ضميرًا؛ وقد حدّثنى من طالت به صُحْبته أنه من شباب سِنه قد جعل يمرّن نفسه على إخفاء نيَّاته ويأخُذ معارفَ وجهه بألا تنمّ على ما فى قرارة نفسه؛ وإنك لتحدثه فى الجلَّى ويحدّثك فيها وهو متطلّق الوجه ضاحك السن حتى ليكاد يملأ عليك المجلس أُنسًا ومراحًا، والله وحده يشهد ما فى جوف هذا الهيكل من ثوائرَ تهدّ أعصى الرجال، وتدك أشمخ الأجبال، حتى لقد دعاه بعض أصدقائه، وهو ما برح فى مطلع مناصبه «بطرس المسلمين»!

ولقد بالغوا فى صمت أبى الهول وقدّروا أن من خلف هذا الوجوم الطويل سرًا طويلاً . أما ثروت فإنه أحذرُ من أبى الهول وأحرصُ على دَخِيلة نفسه، فإن وجهه الضاحك منك لا لك ليقنعك بأن هذا الخَلْق لا يحقن من السرِّ كثيرًا ولا قليلاً.

ولو أن إنسانًا حدّثك بأن لسان ثروت لم يسقط من ثلاثين سنة بكلمة واحدة لا يريد هو أن يُطلقها بكل معناها وما تتصرَّف إليه من وجوه المغازى لما كان فى قوله متزيِّدًا ولا غاليًا.

---

(١) تناولت مجلة الكشكول عبد الخالق ثروت مستفيدة فى ذلك من أسلوب الأستاذ الشيخ البشرى. يقول محرر الكشكول فى حديثه عن عبد الخالق ثروت : « أرأيت لو أن الحظ أتاح لك من ثروت باشا ساعة لقاء فملأت منه عينك، وعببت من حديثه عبًا، ثم رجعت تقول كلمة الحق، أكنت تقول إلا أنه السيف مضاء وبريقًا، والنسيم خفة وعبيقًا، وشمس الربيع أناة واستحياء ، والبحر رهبة وصفاء والإنسان فى هذه الأرض تلقى عن وحى السماء فن الموسيقى فتعرف أشجى ما تسمع من هذا الفن وأمتعه تطرية وحنانًا، وأنفذه فى النفس، وأفعله فى القلب، وأقربه إلى أن يكون قطعة من الروح، ثم إذا شئت أن تسمع ثروت باشا وهو يتحدث، فاسمع من صوته هذه الترنيمات السماوية». راجع مجلة الكشكول عدد ١٣ مايو سنة ١٩٢٧م.

ولقد تُعوزه مَوْهبة الخَطابة والتفجُّر بالقول؛ على أنه إذا ارتجلت عليه طارئةٌ خطابَ الجَمْهَرة أرسل الكلام، فى أدقّ المواقف وأحرجها، بليغًا سلسا نيِّرًا يروعك برشاقته فى التحرّف عن كل ما لا يؤذن به للسياسى وإن فُسِح فيه للخطيب.

وهو بعدُ رجل حَسَن المَلْقى كريم المقال وافر الأدب.

جمُّ التواضع والدنيا بسؤدده تكاد تهتزّ من أطْرافها صَلَفا

وإنه ليُقبل عليك بكل ما عنده من الرقة وإظهار المودّة وشدّة المواتاة حتى لتجدنّه قد أصبح قطعة من قلبك؛ ولتحسبن أنك أصبحت أيضًا قطعة من قلبه، ولعلك لست منه فى شىء أبدًا!

وسبحان من قسم الحظوظ! فلو أن لى أمنية فى خلق الله لتمنَّيت عليه تعالى أن يمزُج عدلى بثروت، على نحو ما تمتزج بعض النقابات والبنوك، حتى إذا اتحدا وتمت «لخبطتهما» أحدهما بصاحبه شق هذه العجينة إلى شخصين، وسوَّى منها رجلين، إذًا لخرجا أحسن الرجال، ولتحقق كل ما عُقِد بهما من الآمال؛ اللهم آمين!

وقد بدت مخايل النَّجابة على عبد الخالق ثروت طفلاً حتى إذا استوى لسن التعليم سُلِك فى المدرسة التوفيقية فكان يملك (الأوّلية) غالبًا على سائر لِدَّاته التلاميذ، وأحرز «البكالوريا» فى سنة ١٨٨٨ ، وخرج فى أوائل من أحرزوها لِعَامِهِ، وقد حدثنى من رآه تلميذًا فى مدرسة الحقوق يزور مع والده المرحوم إسماعيل باشا عبد الخالق عالمًا من أجلّ علماء عصره، فإذا هذا الفتى يجادله فى أمور من أمور الدين مجادلةَ الأكْفاء، ويحاوره فى تعاليل أحكامه محاورة النُّظَراء، حتى انبعث لسان الشيخ العظيم بتسبيح من خلق هذا الغلام!.

وبعدَ إذ تخرّج فى مدرسة الحقوق نابغة رائعًا اتصل بلجنة المراقبة القضائية وعُيِّن سكرتيرًا للمستشار القضائى فكان كل التشريع المصرى قَرَابةَ ثلاثين سنة من وضع عبد الخالق أو باشتراكه؛ فليس عجيبًا أن يُدعى عبدُ الخالق ثروت فى هذا البلد أبا القانون.

وكان مستشارًا فى الاستئناف، وكان مديرًا لأسيوط، وكان نائبًا عموميًا، ثم كان وزيرًا للحقانية فى وزارة رشدى من صدر سنة ١٩١٤ إلى صدر سنة ١٩١٩، ثم استقال مع صَحْبه الذين استقالوا مشايعة للثورة وحفاظًا لنهضة الوطن. فكان فى كل المناصب التى ولِيهَا لا يعمل إلا بالقانون ولا يُؤْثِر إلا حكم القانون مهما اختلفت عليه ألوان الاعتبارات؛ فقد اتصل القانون بعصبت وجرى فى نفسه مجرى دمه؛ ولعل ما أُخِذ به ثروت باشا بعد إذ اضطلع بأثقل عبءٍ سياسى من تردّده فى بعض مواطن الإقدام، إنما كان الوزْر فيه كله على حرصه على القانون وتحرّيه ألايتحرّف عنه فى كل مذاهبه، فإن للسياسة أحيانًا سبيلاً غير سبيل القانون. وعلى كل حال فإذا عَدّت السياسة هذا على ثروت فسيعتدّها له النبل ومعالى الخلال.

وكان ثروت وزيرًا للداخلية فى وزارة عدلى باشا (سنة ١٩٢١) وقائمًا مقامَ رئيس الوزراء فى أثناء غيابه فى مفاوضة اللورد كرزن، فلما قطع عدلى باشا هذه المفاوضات عاد إلى مصر فقدم استقالة الوزارة. واستوحش ما بين مصر وانجلترا؛ وسكت المنطق من حيث تكلم الحديد والنار ، وانطلقت القوة تفعل فى هذا البلد ما تشاء، وفُتِنت الأحلام فى مصر وإنجلترا معًا؛ وعُمِّيتْ على الناس مذاهب الرأى هنا وهناك. ولابد من حل ، فلكلِّ سائلةٍ قرار ، فأبى داهية الرجال أن يكون هذا الحلُّ على حساب الضعيف!.

لا أدرى ولعل أحدًا غير الله لا يدرى كيف كان أبو الهول يقلّب الرأى ، وما كانت تُجِنّ خَلَجاتُ [1] وجهه من فنون الحيل، حتى إذا استوى له الرأى كلُّه تجمع فضرب تلك الضربة الهائلة التى صدعت قيود مصر وأطلقتها فى الدول دولةً مستقلة ذاتَ سيادة وسلطان، وسُرعان ما آذنت إنجلترا الدولَ بانتهاء حمايتها على مصر، وسرعان ما آذنها جلالةُ الملك باستقلال البلاد وشرع ثروت باشا يسنّ للدولة دستورًا قويًا لأن مصر الفتاة تأنف العيشَ إلا فى كَنَف برلمان، وهذا البرلمان يعمل وسيعمل إن شاء الله حتى تحيا مصر أعلى الحياة.

على أنه ما برح بيننا وبين إنجلترا مسائلُ جليلةٌ، وإن رجالاً فيها ليتربصون الفرص ليتحيَّفوا من حقوقنا؛ فما أحوجنا فى أمرنا معها إلى عزم الأبطال. وما كان الله ليخيب رجاء مصر وفيها سعد، وفيها عدلى، وفيها ثروت ، وفيها من يحُفُّ بهم من رجالات عظام.

فلتحيا مصر ولتبلغْ كلَّ أمانيها فى ظل ائتلافها النبيل.

(١) أصل الاختلاج: الحركة والاضطراب.

obeikandl.com

obeikandl.com

ثـورة فـى هيكـل رجـــل !

obeikandl.com

إبراهيم الهلباوى بك [1]

ما صدق أولئك النَّفَر من العلماء حين زعموا أن هناك تشابهًا بين النفس والجسم ؛ وتشاكُلا بين الروح والهيكل الذى يحتويه، وإلا كان الهلباوى هذا من أحلى الناس وجهًا وأبهاهم طلعة.. فإنه ولا مِرْية من ألطف خلق الله نفسًا وأخفّهم روحًا..

شيخ يتزاحف على السبعين إن لم يكن قد اقتحمها فعلاً، لم تُوَجِّه الطبيعة أية عناية فى تكوينه إلى شكله وَدَلِّه، فإذا أنت جلست إليه مع هذا خلبك بلطفه، وشعرت بأنه تَسَرّب فى كل نواحى قلبك حتى أصبح قطعة من نفسك وإنه ليذكّرك بخفة روحه التى تكاد تطير، أثناء حديثه، بأطراف جسمه قول أبى تمام:

مَاذا تَقُولينَ فى شَيْخٍ فتى أبدا ... وقدْ يكونُ شَبابٌ غيرُ فِتيانِ

وأنا إذا تحدثت عن الهلباوى أشعر ويشعر الناس معى، برغم أنفى وأنف غيرى، أننا فى رجل غير عادى، أو بعبارة أخرى فى رجل عبقرى.

ولعله لم يفْتَرِق الناس فى هوى امرئ إذا استثنينا إسماعيل باشا صدقى افتراقَهم فى الهلباوى ، فقد عاش مدى عمره يُحبِّه ناسٌ أشدَّ الحب، ويُبغضه ناس أشد البغض، إلا أن هؤلاء وهؤلاء لا يسعهم جميعًا إلا التسليم بأنه رجل عبقرى ؛ بل لعله لم يجتمع له فى القلوب كلُّ هذا الحب وكلُّ هذا البغض إلا لأنه رجلٌ عبقرى !

طويل القامة، عظيم الهامة، بائن الطول، مفتول العَضَل؛ شديد المُنَّة[2] قوى البنية. رأيته يَخْطُبُ الناسَ عصر يوم قَدِم فى صباحه من أعلى

---

(١) واحد من كبار المحامين المشهورين فى ذلك العصر، ولد بالغربية،وتعلم فى الأزهر الشريف، وجلس إلى جمال الدين الأفغانى، وتعلم منه فن الجدل، والخطابة والحكمة.

(٢) المنة : القوّة.

الصعيد، والهلباوى إذا خطب خطب بكُلِّه : بلسانه ؛ وبعقله، وبنُخاعه، وبَعصبه ، وبرأسه ، وبيديه، وبرجليه أيضًا! وله صياح يَقُدّ أصفَقَ الحناجر. ثم تدلَّى عن المنبر بعد أربع ساعات كاملات فى كل هذا البلاء وهو أشدُّ وأفْتَى من أكثر مَنْ سمعوهُ إن لم لكن أفتى ممن سمعوه جميعًا. وما شاء الله كان!.

شديد العقل، حاضر البديهة، قوى الذاكرة ، ملتهب الذكاء، على أننى لا أدرى أتفى كل هذه بحاجات لسانه أما لا ؟!

محام أىّ محام، وخطيب أىّ خطيب! لقد يقف فى الجَمْهَرة والناس أكثرُهم على غير رأيه فيما يجول فيه، فما يزال يدور على مواطن إحساسهم يَجُسُّها من ههنا ومن ههنا فى رشاقة وخفة قول، ولطف شاهد ، وبراعة نكتة، حتى إذا آنس من الآذان تطامُنًا من جِمَاح واسترخاء بعد عصيان، هجم منها بكُلِّه على النفوس فظل يَهُزُّها هزاً، ويرُجُّها رجًا، فما الفَحْل إذا هَدَر ، ولا اللَّيث إذا زَأَر، ولا البحر إذا زَخَر، بأشدَّ صَوْلة على الأسماع من الهلباوى يتدفَّق فى الكلام، فما يروعك مِن هذه الجماهير الواجمة[1] إلا أن تراها ، برغمها، قد أرسلت حناجرها بالهُتَاف وبَعَثت أكُفّها بالتصفيق!

والهلباوى خطيبًا يشترى هَوَى سامعيه بأى ثمن: فهو يجدّ ويهزل؛ ويثب ويحجل؛ ويضحك ويبكى؛ ويعلو ويُسِفّ، ويثقُل ويخفّ؛ ويكثف ويشف. وينظم الدرر، ثم يرمى بالشرر، وبينا تراه فى وَدَاعَة العُصفور، إذا به فى شراسة النُّمُور كذلك يتشكَّل هذا الشيخ فى خُطَبه ويَتلوَّن لكل مواقع الكلام!

وإذا كان الهلباوى خطيبًا عظيمًا فهو ممثلٌ أعظم!

نَجَمَ[2] الهلباوى من أسرة فى الغربية كريمة العِرْق إلاّ أنها رقيقةُ الحال، فلما يفَع قذفت به إلى الأزهر فعكَف على مُدارَسَة علومه، وقد عُرِف بين

(١) الوجوم: السكون على غيظ، وتأتى بمعنى سكت فزعًا.
(٢) نجَمَ: طلع وظهر.

لِدَاته، من صدر أيام الطلب، بالفطنة وحدة الذهن والإكْبَاب على تحصيل الدرس. وعلومُ الأزهر، كما تعرف ، تقوم على الجَدَل والمكاثَرَة بألوان التّدليل، وكان الهلباوى فوق «أزهريته» تيك عنيدًا فى رأيه مُلحًا حتى على أشياخه فى حِواره، جريئًا على مخاصمتهم فى كثير مما تَسْقُط عليه أفهامهم فى مذاهب الكلام.

وهَبَط المرحوم السيد جمال الدين الأفغانى مِصَر فاتصل به الهلباوى كما اتصل به كثير من أهل المواهب والذكاء. وكان يُعلِّمهم مسائل من الحكمة، ويلقِّنُهم فصولاً من فلسفة اليونان كما نقلها العرب عنهم. وقد مَدَّ السيد الأفغانى أذهان طلبته على كثير مما يُحيط بهم؛ فَفَجَّر عقولهم، وجَرَّأ قلوبهم، ودرَّب ألسنتهم على المنطق والمغالبة بفنون الجَدَل، وعوَّدهم الجهر بالرأى دونَ الخوف من أحد. وفى ثنايا هذا كله كان يبعث فى نفوسهم دَعوةً سياسية جريئة.

وخرج الهلباوى بعد هذا إلى مَيْدان العمل فاتصل اتصالاً أَوْفَى بالبيئات التى تَفهَّمَت حياة الغرب وتَروَّت علومه الحديثة وأخذت أحلامها بمنطقِه الطريف. وهكذا أصبح الهلباوى خليطًا من كل ما تَقَلَّبَ فيه من أطوار الحياة!

وما اجتمعت هذه الأسباب كلها فى نَفْس إلا اضطرمت وثارت فلا تعود تستريح إلى قرار . فلا عجب إذا كان الهلباوي ثورةً دائمةً فى هيكل رَجُل؛ والبركانُ دائم الفَوَران، فهو ينفجر من حين إلى حين وإن احْتَقَن إلى حين.

ولقد يكون ما يظنه كثير من الناس تردُّدًا فى الهلباوى أثرًا من آثار هذه الثورة النفسية، فإن الثورة لا تعرف نظامًا ولا تستوى فى شبوبها لطريق.

ولعل موقفَه يوم دِنشَواى كان مظهرًا من مظاهر هذه الثورة، على أنها هذه المرَّة كانت أدنى إلى تَحَدِّى الجمهور منها إلى ما اعتاد من تحدِّى السُلَطَاء من أهل الحُكْم؛ وفى كل حال فقد كانت منه كبيرةً، ولعلها كانت سقطةَ الرجل العظيم.

على أن أحـدًا لم يَجْـرؤ على أن يُحـيل تردُّدَ الهلبـاوى، الذى قـالوا، على طلب منفعة شخصية من منصب أو جاه أو مال.

وقد صحِب القضاءَ المصرىَّ الحديث ودَارَجَهُ من أول نشأته إلى اليوم، فلم تكد تقع قضية ذاتُ شأن فى البلاد إلا دُعِىَ لها الهلباوى فافْتَنّ وأبدع؛ وله فى هذا الباب جولات معدودة له على وَجْهِ الزمان. فلا عجب إذا عُدّ صحيفةً من أحفل صُحُف القضاء المصرى وأظهرها حواشِىَ ومتونًا.

وقضى هذا الزمنَ الطويل محاميًا واضحًا أمينًا مُجدًا فى عمله حريصًا على أداء واجبه، لم تُحْصَ عليه كَرَّة واحدة مما يَخْمِش(١) وجه المحاماة.

ثم هو فى علاقاته الشخصية شديدُ التّوَافى لأصدقائه حريصٌ على مودّتهم لا يقصر فى أداء أىّ واجب لأى كان منهم. ولا أحسب الهلباوى قد عادى أحدًا أو عاداه من الناس أحد إلا فى شأن عام.

وإنى كلما جاش فى نفسى الحِقد على الهلباوى بك هرولت إلى مجلس النواب فشفيت صدرى برؤيته، بعد كل ذلك ! وقد امتثل حقًا لحكم النظام ، فهو يرفع إصبعه بطلب الإذن كلما أراد القعود، أو القيام ، وكلما أراد السكوت أو الكلام، وكلما طلع أو نزل، وكلما عطس أو سعل، وكلما تحرَّف أو تخطَّى . وكلما تثاءب أو تمطَّى، وكلما دَلَك أكارعَه، أو فَتَلَ أصابعَه ولابد من الخضوع والطاعة ، لكل من ينتظم فى سِلك الجماعة؛ وإلا ساء النظام ، واضطرب حبل الأحكام!

وكذلك أخمَدَت الحياة النيابية ، هذه الثورة الشيخة الفتية .

وإنى إذا لم أصفه فى موقفه الجديد بأنه أصبح «كالوحش يستدنيه للقَنَصِ المَحْل» ، فإنى أقول له : «ولا بدَّ دونَ الشهد من إبر النَّحْل»!!

(١) يقال: خمش وجهه، جرحهُ وتعبير البشرى كناية عن العفة.

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

obeikan.com

obeikandl.com

الدكتور محجوب ثابت [1]

لا شك فى أن الدكتور محجوب ثابت يعدّ، بحق، فى ميراثنا القومىّ، ولو- لا أذن الله - جرى عليه القَدَر لكان لابد للأمة من «دكتور محجوب ثابت» بأى طريقة من الطرق. نعم هو فى ميراثنا القومى لا يقلُّ عن آثار سقَّارة، وجامع السلطان حسن، ومقابر الخلفاء. ولقد أصبح على الزمان جزءًا من تقاليدنا الأهلية كحفلة المحمل، ووفاء النيل، وركبة الرؤية، وشم النسيم!. ولما فكر المرحوم محمود بك رشاد فى جعل العَلَم المصرى محلًّى بصور بعض الآثار القديمة فرعونيةً وإسلامية لم يرَ المصوِّر بدّا من أن يرسم بجانب الهرم وأبى الهول وجامع برقوق وحضرة سيدى أبو السعود صورةَ الدكتور محجوب ثابت.

والدكتور فى المصريين كإنجلترا فى الأمم، كل منهما يرى عليه للآخرين تَبِعات لا تنقضى على وجه الأيام! فإذا كان الكلام فى النيل وما عسى أن يجتازه عن مصر خزانُ مكوار تولّى «الدكتور» الكلامَ ومَلَكه على جَمْهَرةِ المهندسين! وإذا كانت الثورةُ تصدَّر الدكتور لجنةَ الوفد المركزية، وكلما انتشرت فى البلد مظاهرة كان ناظُورتها[2] الدكتور ، وكلما ساروا «بضحية

---

(١) طبيب مصرى بارع ، من الكُتَّاب ، وله مواقف خطابية ، ولد سنة ١٨٨٤م، واشتهر بمناصرته لقضية السودان السياسية، وبدعوته إلى تنظيم حركة العمل فى مصر سنة ١٩٢٠م، وإدخاله التدريب العسكرى فى الجامعات والمدارس المصرية ، أصله من «دنقلة» . وكان أبوه ثابت مهندسًا فيها تولى النظر فى العمارات والحصون الأميرية، وهاجر إلى القاهرة فى السنة التى ولد فيها محجوب، عمل محجوب ثابت مع سعد زغلول ، ووصف بأنه كان دمث الخلق، عَفَّ اللسان ، سليم الطوية ، حلو العِشرَة ، وكان من خطباء ثورة سنة ١٩١٩ ، عين أستاذًا فى الطب الشرعى بالجامعة إلى أن توفى سنة ١٩٤٥م. انظر الأعلام (٢٨٣/٥).

(٢) الناظورة: سيد القوم المنظور إليه منهم .

حرِّية» كان الدكتور أول المشيّعين، فإذا كان اجتماع فى الأزهر كان الدكتور فارسه المُعْلم وعُذَيقه المرجَّب، فإذا تعانق الهلال والصليب، استأثر الدكتور من عناق الأب سرجيوس بأكبر نصيب، فإذا وَجَدَ دَهْمَاءُ المصريين على الأرمن وهمّ بعضهم بإيقاع الأذى بهم طاف الدكتور بعربته (ومكسوينيه) على دورهم فنقلهم وعِيالهم ومتاعهم وأثاث بيوتهم إلى مَأمَنِهم. فإذا غضب الأروام من أن بعض الرعاع أصابوا منهم على وَهم أنهم أرمن، شَخَص الدكتور فى الرَّكب الحافل إلى دار قنصلهم فخطب جَمْعَهم باسم مصر ومادّهم حبالَ المودّة، وعقد معهم ، باسم الأمة والحكومة أيضًا، فنون المعاهدات. وإذا كان جمع الأموال للوفد أغلق الدكتور عيادته «بالضبَّة» وهاجر إلى قنا فلبث الأشهر الطوالَ، يجمع ما تحتاج إليه القضية من جليل الأموال، فإذا كانت مشاكل العمال أبى الدكتور إلا أن يتفرّد بها من دون الناس جميعًا، فانتفض نقيبًا لعمال العنابر، ولفافى السجاير، وسواقى الأتومبيلات، وشيالى المحطات، ونُدُل[1] الفنادق والقهوات، وجميع طائفة المعمار، وأصحاب الحوانيت من كل بدال وبقال وجزار، وعمال المطابع ، وكناسى الشوارع ، وصُنَّاع الخيم ، ومَسَّاحى (الجزم)؛ ولو فكرت طوائف الجُرْذان[2] والسَّنانير، وجماعات الجعْلان والصراصير، فى أن تتخذ لها نقابات لتمثَّل الدكتور ثابت فيها خطيبًا، ثم استوى لها بفضل الله نقيبًا[3]!

---

(١) النُّدُل: خدام الفندق.

(٢) الجرذان : كبار الفئران.

(٣) تناولت الكشكول الدكتور محجوب ثابت فقالت فى وصف دقيقٍ تعلمه محررها من مرايا البشرى:

وقد تروعك منه هيئة البواب ورثاثة الأثواب، وقد تلقاه وهو فى أجمل هيئة فتحكم أنه آيب بعد سفر بدد ليله ونهاره، وحمل ترابه وغباره، وربما كان الصواب أنك لقيته ولم تنقض ساعة منذ خرج من الحمام مغتسلاً نظيفًا .

والدكتور محجوب رجل طيار كأنما خلق الله له جناحى حمامة: يسمع الناس أن الحرب وقعت فى طرابلس الغرب، فلا يكاد اليقين بوقوعها يأخذ مكانه من نفوسهم، حتى يسمعوا أن طبيبًا مصريًا لحق بالمقاتلين يُعالج الجرحى ويداوى المرضى، ويرد الصحة إلى من فقدها. ثم يكون هذا الطبيب هو محجوب ثابت.

=

وفى الحق أن الدكتور يرى نفسه مسئولاً عن كل ما فى البلد من هابط وصاعد ، وقائم وقاعد؛ وغاد ورائح، وسانح وبارح؛ ودارج على متن الغَبراء، وسابح فى جوف الماء ، وطائر فى جوّ السماء . فإذا كانت هنالك منطقة خارجةٌ عن اختصاص الدكتور محجوب فهى عيادته فقط ! ذلك بأنه ليس برجل أَثَرة، بل هو رجل إيثار يُعنَى من أمر قومه بكل دقيق وجليل، أما خاصة شأنه فلا يعنيه منها كثير ولا قليل.

ولا أحسب رجلاً فى مصر ولا فى إنجلترا مشغولاً بالسودان شُغْل الدكتور ثابت ، فحديث السودان يجرى منه مجرى النَّفَس، ولو هُيِّئ له ، أو لو هيئ لك أنت، على الأصح، أن تستمع له لحدّثك فى شأن السودان ثلاثين عامًا متَّصلة لا ينقطع ولا يتحبَّس، ولا يتلجلج ولا يتلعثم ، ولا يمَلّ ولا يكلّ، ولا يُبْطِئ ولا يَزِلّ.

= وتتحدث الأنباء أن الحرب وقعت فى البلقان فيذهب الناس فى تصديقها مذهب الشك ، وتجىء أنباء أخرى أن الدكتور محجوب هبط ميدان القتال فى بعثة من الأطباء ينشر الرحمة ويكشف الآلام، فيصبح الشك يقينًا.

وفى القاهرة جوال على مركبة يجرها المغفور له مكسوينى المحبوب، وماذا يصنع الدكتور فى تجواله، أنه وراء الجنود البريطانيين يستهدف لرصاص المترليوز ليرفع جريحًا أو يحمل شهيدًا حتى إذا رجع الباقون إلى مأواهم وطوى عزرائيل كتاب يومه ذهب صاحبنا يَسْتَخِفّ المصريين من الدور والمتاجر والأندية ليشهدوا جناز الشهداء وليمجدوا فيهم أبطال الحرية.

وليس جهاده للعمال ينسى، ولعله أحب رجل اليهم بعد المرحوم الأستاذ محمد كامل حسين، فهما اثنان أعطيا العمال من الإخلاص وصدق التضحية والأمانة على الحق ما قد لا يجدونه فى اثنين غيرهما.

وقد شغف بالسودان إذ كان يعلم أن السودان فى مكان الرأس من مصر، وفى الرجال كثيرون يعلمون هذا الذى يعلمه ولكنه هو يريد الرأس الذى يفيض الحياة على الجسد، ولا يريد الجسد الهامد.

وللدكتور فى مشكلة السودان نظرية طريفة جدًا، فإنه يرى أن كل العقدة فيها إنما هى فى إقناع المصريين وحدهم بقبوله وإدخاله بلا قيد ولا شرط فى ملكهم الخالص ، فهو كلما رأى رجلاً أو امرأة أو صبيًا أو وليدًا أقبل عليه «يقنعه» فى قوّة وحماسة بقبول السودان، وتدفَّق ما شاء الله أن يتدفق بألوان الحجج لحق مصر فى السودان وحاجة مصر إلى السودان، وما أنفقت مصر على فتوح السودان، ومن أبلَى من أبناء مصر فى حروب السودان، ولو أن رجلاً مسح السودان شبرًا شبرًا، وذرعه فتْرا فترا، ما كان أعلم به من الدكتور ثابت،على أنه لم يَرَه ولم يزُرْه طول حياته مرة واحدة. وقال له بعضهم يومًا: لقد جعلت السودان شُغلك يا دكتور حتى أصبحتَ رمزَه فى هذه البلاد، فهلاَّ زرته وتفقّدت أهله؟ ففَتل عُثْنُونَهُ وقال: لا حاجة بنا إلى هذا فقد عرفناه وخبرناه .. ولا أدرى أكان هذا من الدكتور وَرَعا أم كسلاً!

ويظهر أن الدكتور ظن بعد لأْى أن المصريين غيرُ مقتنعين بضرورة «أخذ» السودان فشخَصَ إلى سوريا ليقنعَ أهلها بضرورة «أخذ» المصريين للسودان! فقد بلغنى أن ذلك كان حديثَ الدكتور هناك فى مسائه وصباحِه، وغدوِّه ورَوَاحه؛ وموضوعَ مفاكهاته وأَسْماره، فى مُقَامه وتَسْياره.

ورَأْى الدكتور فى «أخذ» السودان أبدع من رأْى ذلك الفلاح المُكَارى إذ قال لإخوانه يومًا: كيف لا تهنئوننى؟ فقالوا: بماذا ؟ فقال: بأننى سأتزوج بنت السلطان! فقالوا له : وهل قُضِىَ الأمر؟ قال : بل نصفه؛ فإننى وأبى قد رضينا ولم يبق إلا هى وأبوها!.. أما الدكتور - أعزهُ الله- فإنه لا يرى بين المصريين وبين أخذ السودان كاملاً بلا قيد ولاشرط، ومن فوقه ملحقاتُه وملحقاتُ ملحقاتِهِ إلا أن يرضَوْا هم!.. وقد قلت له يومًا: ألا جعلتَ بعض همِّك إقناع الإنجليز أيضًا بترك السودان لأصحابه المصريين؟ فأجابنى بكل قوة وثِقَة: لا ! ما يقولوش حاجة!!

حقًا إن هذا الرجل أمةٌ وحْدَهُ، وإنه لعبقرىٌ لا يتدلَّى إلى منطق الناس وأسباب تصوُّرهم، فإن له قياسه وتقديره، وله منطقه وتفكيره؛ وله أسلوبه وتدبيره. وأظهر صفاته فى هذا الباب أنه لا يحفل بما يسمونه الواقع كثيرًا

ولا قليلاً، فحسبه أن يشتهى الأمر فيقدّره واقعًا، أمكن ذلك الأمر أو استحال ومثله من تخيَّل ثم خال. ولقد كان فى سنة ١٩٢١ يسعى جاهدًا فى أن ينتظم عضوًا فى الوفد المصرى، وقد وسوس له شيطان من الإنس بأن عدلى باشا فكَّر فى تعيينه مستشارًا فى الوفد الرسمى لولا أن انتهى إليه أن سعد باشا سيلحقُه بالوفد المصرى ، فكان جوابه على الفَوْر: ما فيش مانع ياسيدى! وهكذا طَمِع الدكتور فى أن يكون عضوًا، معًا، فى الوفدين المتقاتلين سنة ١٩٢١ !

وأذن الله ودخل الدكتور فى الوفد المصرى طبعة ثالثة أو رابعة، بعد ما عَصفَت القوة بجلّة رجاله سنة ١٩٢٢؛ ثم بدا له ، لأمر ما أن «يشلحه» (١) فكانت تخرج النداءات والمنشورات ممهورة بتوقيعات رجال الوفد وليس اسم الدكتور فيها إذ الدكتور مصمم على أنه ما بَرح عضوًا فى الوفد يلتمس «لعضويته» المعاذير بأنه ربما دُعِيَ للتوقيع فغاب، أو أُرسل إليه فلم يبلُغه الكتاب ، على حدّ قول الشاعر:

نحنُ قومٌ إذا دُعينا أجَبْنا ... وإذا نُنْسَ يَدْعُنا التَّطْ (٢)
وَنَقُلْ عَلَّنا دُعِينا فَغِبْنا ... وأتانا فلم يجدْنا الرسول!

وظل الدكتور برغم طول المَدَى وذُيُوع الأخبار «بشلحه» مصممًا على أنه مازال عضوًا فى الوفد. وقد جادله بمحضرى فى ذلك قومٌ فكانت كل حجته أن محمد أفندى كذا قابله يومًا فحياه وقال له: يعنى ما حدش بيشوفك يا دكتور؟!» ومحمد أفندى هذا يزور السيد حسين القصبى أحيانًا، فلابد أن يكون سَمَع هذا من الوفد، فكيف تزعمون بعدها أننى لم أبق عضوًا فى الوفد؟

هَذَا كلامٌ لهُ خَبىءٌ ... معناهُ ليستْ لنا عُقولُ!

---

(١) شلَّحَهُ: عراه.

(٢) كذا كتبها الشيخ البشرى وهذه الكلمة هى «التطفيلُ» والطفيلى: هو الذى يذهب إلى الأفراح بدون دعوة، وهدفه الأكل فحسب.

ومن أظرف نوادره أنه فى غيبة الرئيس الجليل حدثت بينه وبين بعض رجال الوفد جَفْوة، فانقطع عن زيارة بيت الأمة، فقيل له: إن السيدة أنيسة الرشيدى نازلة بدارك وهى تستقلُّ كل يوم مركبتك إلى بيت الأمة، والناس كلهم يعرفون «مكسوينى»(١) وإنهم ليرونه هناك فلا يشكُّون فى أنك الزائر! فقال: لقد نبهنا على الأوسطى «على» إذا نزلت السيدة أن يقف على الرصيف الثانى احتجاجًا!

وكانوا يرشحون لمناصب المفوّضين والقناصل لتمثيل مصر فى البلاد الأجنبية، فتقدّم الدكتور؛ فقيل له : ولكنك حَذَقْت الطب، أما التمثيل السياسى فشىء آخر، فقال: ومن أَخبُر به منا يا ولدى ! لقد عجنَّاه وخبزناه فقد كنا فى (چنيف) كان يجلس معنا أحيانًا على بعض قهواتها سكرتير قنصل إنجلترا وتناوَل الشاى معنا مرارًا!

والدكتور محجوب ثابت عريض الألواح بعيد مَدَى العظام لولا أن فى جسمه رُهُولةً؛ أميل إلى الطول، فإذا مشى خلته أحدبَ وما به حدبة، ولكنه انحناء الظهر من ثقل التبعات لا من ثقل السنين، عريض الجبهة إلا أن أسفل وجهه أعرض من أعلاه . يُرسِل سَبَلَتَه وعُثْنونه وشعرَ عارِضَيْه فى هيئة لطيفة مقبولة ؛ وله عينان رقيقتان ترتسم فى بياض كل منهما دائرة تحيط بدائرة حتى تنتهى إلى إنسانها، وهما دائمتا الحركة والاختلاج، وهو بعدُ طيب القلب، مكفوف الأذى، عذب الروح، حلو الحديث، ضحوك السن، يتحرَّى فى قوله غريبَ اللغة، ويلتمس الشاهد من مأثور شعر العرب، وقد يجىء به أحيانًا مكسورًا غير مُتَّزن، أما قافاته فحدّث عنها ولا حرج، جُزْتُ بداره مرة فرأيت بنتين صغيرتين تتلاعبان، فقالت إحداهما للأخرى: هذا بيت الدكتور، فسألتها : ومن الدكتور؟ فقالت لها: ألا تعرفين الدكتور الذى يقول يا بنت هاتى القبرة! (الإبرة).

---

(١) مكسوينى : اسم بطل أيرلندى مشهور ، انتحر جوعًا، وأطلق أدباء العصر على حصان الدكتور محجوب ثابت اسم «مكسوينى» يكنون بذلك عن هزال الحصان من الجوع. انظر ما قاله أحمد شوقى عن هذا الحصان فى صورة أدبية مضحكة ، الديوان (١/ ٢١٤) المعروف بالشوقيات.

وفيه ذكاء حادّ؛ يديم القراءة والنظر فى الكتب وكأنه يحفظ بظهر الغيب كلَّ ما يقرأ، تعرف هذا من علمه الواسع الذى يكاد يستغرق كل ما فى الدنيا وكل أسبابها، إلا أن علمه، مع الأسف، يختلط بعضه ببعض حتى ليخيل إليك أن رأسه «كتبخانة مدشوتة» . ولو قد ملكتُ أمره، وكانت لى بسطة فى المال والسلطان لدعوت بمستشرق ألمانى فنّى لينظم هذه المكتبة العظيمة فيضم كل شَكل إلى شَكله، ويجمع كل جنس إلى جنسه، ويرد كل معنى إلى بابه، ويصفّ كل فن فى «دولابه».

ومن أخص صفات الدكتور ثابت أنه لا يكاد يشعر بمرور الزمن، وإذا كان من آية «يوشع» أن الشمس رجعت له مرة [1]، فإن من آية دكتورنا عند نفسه أن الشمس تثبت له موضعها على طول الزمان، فأنت إذا دعوته ليتناول الغداء معك أقبل عليك الساعة ٥ بعد الظهر حتمًا فى غير وَرَع ولا اعتذار. ولقد دعاه صديق لى وله لتناول الإفطار فى رمضان ولبثنا ننتظره برهة فلما أيسنا منه أفطرنا، وفى نحو الساعة الحادية عشرة أقبل الدكتور مشمّرًا للفطور؛ وما كان أشد دهشته «يقينًا» إذ علم أننا أفطرنا من أربع ساعات فانطلق يزمجر و«يزوم» ، ويعتب ويلوم!

ومما يذكر للدكتور فى هذا الباب أنه ما أدرك قط القطار الذى يعتزم السفر فيه ، حتى تقرر عند جميع أصدقائه أنه إذا آذَنَهم بالسفر إلى بورسعيد فى قطار الساعة ٧ صباحًا شَخَصوا إلى المحطة لتوديعه فى قطار الساعة ١١، وإذا آذنهم بالسفر إلى الأسكندرية فى قطار المفتخر كانوا فى وداعه بقطار الساعة ٧ مساء.

وسافر مرة إلى الأسكندرية لوداع الآنسة «سنتيا موير» الصحفية الأمريكية وأخذ تذكرة للذهاب والإياب على أن يعود من يومه فلبث هنالك قَرَابَة شهرين ونصف شهر.

---

(١) يوشع نبى من أنبياء بنى إسرائيل، وردت قصة رجوع الشمس وإمساكها له فى البخارى ومسلم.

ولو قد ذهبنا نعدّد لطائف الدكتور محجوب وبدائعه [1] لما اتسع للحديث مثل هذا المقال. وإنه ليجمل بنا فى موضع الإنصاف أن نقرر أن الرجل شريف النفس، عفيف الجيب، جمع للنهضة المصرية من مديريتى جرجا وقنا قرابة خمسة عشر ألف جنيه أبلغها كلها محلَّها لم يقتطع منها درهمًا واحدًا حتى ولا لأجرة القطار وسائر نفقات السفر وهى غير قليلة؛ فضلاً عما احتسب عند الله من خراب الأجزاخانة ودمار العيادة وفرار الزباين وسرقة شبابيك الدار.

وهو لا يتعمَّل للدرهم ولا يجرى وراءه! أما إذا سقط الدرهم إلى جيبه فلا إلى رُجْعَى، فمثله فى ذلك مثل المصيدة لا تجرى وراء الفار؛ فإذا سقط إليها الفار، فهيهات ليس له منها فرار. وله فى هذا الباب أحاديث مذكورة ، وأفاكيه منشورة.

وبعد فالدكتور محجوب ثابت أمةٌ وحدَه بما اجتمع له من الصفات، وما احتشد لديه من فنون المعلومات، وما تكدَّس عليه من ألوان التَّبعات. وهو إذا اعتبر لنفسه حق التحدُّث على كل شىء، والدخول فى كل دقيق وجليل من شؤون البلاد، فقد وجب بإزاء هذا أن يكون لكل مصرى فيه نصيب. وأنى لأقترح على الحكومة أن تُصدِر قرارًا بنزع ملكيته وإضافته إلى المنافع العامة ، ولعلها، بعد العمر الطويل، تجعله من نصيب دار الآثار، حتى يظل رمزًا لتلك العبقرية الفريدة على طول الأعصار!

(١) ومن نكاتِ البشرى مع محجوب ثابت ، أنه كان يركب سيارته ، والشيخ البشرى يمشى على قدميه فلما لحق به وقف له وأركبه ، وبعد لحظات قليلة توقفت العربة وطلب الدكتور محجوب ثابت من الشيخ البشرى أن ينزل ويزق العربية ، فما كان منه إلا أن نزل وتركه وهو يقول: أنا آسف أنا مركبش عربية سيئة السير والسلوك.

الدكتور محجوب أيضًا (١)

وإن الحديث لَيَحلو دائمًا فى الدكتور محجوب راسبًا فى الانتخاب، وعضوًا فى مجلس النوّاب؛ كما يحلو فيه مُلِحًّا فى طلب السودان، ومشغولاً عنه بالكلام فى السِّماط والحِوان. وإنى لأوفِّر هذا الحديث على عتاب صديقى صاحب «الكشكول» على قسوته هذه الأيام على الدكتور وإغلاظه القول فيه بعض الأحيان. والأستاذ فوزى يداين صاحبه بقسط كبير من نجاحه فى الانتخاب، فلقد طالما أيده بشديد القول فى جريدته القوية ، كما آزره بشخصه فى الأسكندرية إذ حزَبه الأمْرُ وأعوزه النصير.

والأستاذ إنما ينقم من الدكتور أنه حين استوى على كرسىّ فى مجلس النوّاب تكَرّشَ لسانه فى شدقة وتقبَّض، فلم يعُد يهتف بالسودان ولا بملحقات السودان ولا بشىء مما كان يُمَنِّى به ناخبيه، ويصدّع به رءوس المختلفين إلى (صولت)، وقهوة الشيشة، ونقابة العمال، ومطعم (الكوارع)، وحلوانى محطة الرمل؛ والمتردّدين على عيادته من كل أَرْمد العين، ومضروب بالفالج ومقروح الكَبِد، ومن خرج به جَرَب أو بَرَص، وشاكٍ مرضَ القلب وخفَقَانه ، أو وجع الضرس وضَرَبَانه؛ ومَصْدُورة تدارك بالعلة زفيرُها، وماخض علا صياحها وزَحيرُها. وحين أظْفَره ناخبوه بمقام النيابة نسِى وعودَه المعالجةَ بالسمن والعسل، وخَفَر عهودَه لأهل مينا (البصل)؛ وترك حديثَ السودان فى مجلس النوّاب، وأقبل على حديث (الكنافة) والكباب؛ وترديد ذكر الفطائر المدحُوَّة، والقطائف (المحشُوَّة)؛ والدَّجَاج والسكابيج، والدُّرَّاج والطهابيج، واللُحمان المحمّرة، و(الطواجن المعمّرة)؛ وكل ما يعالجَ بالسمن أو بالزيت، وما يصنع فى السوق وما يُطهَى فى البيت!!

---

(١) مقتبس مما نشر بجريدة السياسة اليومية فى إحدى (ليالى رمضان) بمناسبة حملة الكشكول على الدكتور محجوب.

وما خَفَر الدكتور بالذمة، ولا خَاسَ [1] بعهده للأمة؛ فانما كل همّ الدكتور كان من أمرٌ السودان أن (يقنع) المصريين بضرورة أخذه؛ وقد سَعى الرجلُ فى هذا ودعا ولبث فى دعوته تيكَ سنين طوالاً لا يكلّ ولا يَمَلّ، ولا ينقطع ولا يحتبس، ولا يتَتَعتع ولا يَعثُر، ولا يسكن ولا يَفْتُر، حتى إذا آتت دعوته أُكُلَها (واقتنع) المصريون كلهم (تقريبًا) بأن السودان ضرورى لهم وبأنهم لا غنى لهم عن ماء النيل، شمَّر ذيله وطار إلى سوريا وظل دهرًا يُفْشى فيها دعوته ، حتى إذا آمن السوريون كذلك بأن السودان ضرورى للمصريين عاد فأمسك عن القول فى السودان وملحقات السودان. وما له يقول فيه بعد أن بلَّغ الرسالة وأدّى الأمانة؟ ولو كنتُ لعَمْرى مكانهَ لطلبتُ إلى الأمة إحالتى على المعاش وأثبت فى بطاقة زيارتى:

الدكتور محجوب ثابت

مطالب بالسودان سابقاً وعضو مجلس النوّاب حالاً

وحسْبُ الرجل خدمةً للأوطان، أن (أقنع) المصريين بحاجتهم إلى النيل وحاجتهم إلى السودان ! و«الوطنية» كما تعلم فنون ، ولله فى خلقه شئون!!

(١) خاس العهدَ خيسا: نقضه وأبرَمهُ.

obeikandl.com

فيه شفاءٌ للناس

obeikandl.com

obeikandl.com

الدكتور على بك إبراهيم [1]

رقيقُ الجسم، أدنى إلى أن يكون هزيلهَ، أسمرُ اللون، مستطيلُ الوجه، غليظ الشفتين فى غير قُبح، واضح الثنايا، لعينيه بريق وفيهما جمال، متفخِّم اللفظ، تاؤه بين التاء والطاء، وزايُه بين الزاى والظاء، وادعُ النفس، هادئ السعْى، خفيف الروح، ظريف المجلس، لا يجد العُنْف إلى عواطفه سبيلاً؛ يقصد فى طربه، كما يقصد فى غضبه:

فيه حَدُّ الفتى وحِلم المزكَّى وحِجَى الكهلِ وارتياحُ الغلامِ

ولعل هذا الهدوء العجيب من أبلغ العناصر فى نجاحه فى عمله المرعب الدقيق. وشأنه كشأن جميع النوابغ فى الدنيا: ليس لهم من مظاهرهم ما يدل على أخطارهم، إلا أنك لا تستطيع ألاّ تلحظ أن لهذا الرجل أصابعَ ليست من جنس أصابع سائر الناس، فإنها تسترعيك بطولها وسَرَاحتها وانسجام خَلْقها؛ على أنه إذا تحدّث رأيته يستعين دائمًا بسبابته ووُسطاه فما تزالان كالمِقَصّ فى انفراج والتئام إلى أن يفُرغ من حديثه، حتى إنك لَتَعرفه من أصابعه كما تعرفه من وجهه، ولو قُدِّر لمصوّر أن يرسم أصابعه وحدها لدلّت عليه إلى غاية الزمان.

لقد تسنّم غاربَ المجد، وبلغ من الشهرة ما تتقطَّع دونه علائق الآمال، وهو مع هذا لا يحفِل قطُّ بما كان ولا بما سيكون ولا بما سوف يكون ، ولا تحسبه يطمع فى أكثر من أن يعيش فى غَمْر الناس كسائر الناس.

---

(١) هو الطبيب البارع الكبير على بك إبراهيم أكبر جراح مصرى فى عصره، ولد فى الأسكندرية سنة ١٨٨٠، وتعلم الطب فى القاهرة وتفوق على أقرانه ، ترأس الجمعية الطبية المصرية، وعمل أستاذًا بالطب حتى عين عميدًا لكلية الطب، ثم وزيرًا للصحة. له كتب ومقالات طبية عديدة منها «المضاعفات الجراحية للحمى التيفودية» ،«حصوات الحالب» ، و«جراحات الكبد» . و«منشأ الحصوات» وهو مع ذلك كان شغوفًا بالفنون الجميلة وخاصة التصوير، وهو باسم ضاحك ، سريع النكتة، توفى فى القاهرة سنة ١٩٤٧م. انظر الأعلام (٤/ ٢٥٢).

يا له من رجل ! لقد تكون فى مجلسه معه غيرُك، ولقد تكون معه وحدَك وأنت مَفيض أسبابه ومطَّلَعُ سره؛ فتعرض ذكرى فلان الجرّاح فيقول لك: «بالكِ فلان ده، ويومئ لك بأصبعيه سالفتى الذكر، والله جراح ماله مثيل! ده شىء من فوق التصوّر! لو كان للجدع ده بخت ما كانش حدّ زيه فى الدنيا!» يقول هذا فى رضا وصدق نفس وراحة أعصاب!.. والواقع أننى لا أدرى أكان هذا كله قد جاءه من طبيعة صفّاها الله من كل ما يَتَدَاخل أربابَ الفنون، أم أنه تمكن من نفسه واستوثق من أنه لن يتعلَّق أحد بغُباره مهما افتنّ لإخوانه الجرّاحين فى ألوان الشهادات!

ثم هو شديد العطف على إخوانه الأطباء عامة، عظيم العَون لجماعتهم، رَطْب اللسان فيهم.

ومن أظرف نوادره أن رجلاً من كبار الأغنياء قدم إليه يشكو علة لا تتَّصل بالجراحة؛ فقال له: ياعم لا شأن لى بمرضك فاذهب إلى الدكتور فلان أو الدكتور فلان، فهم الذين يحسنون «تشخيص» علتك ويقدرون على علاجك. فقال الرجل : بل إنما قصدت إليك أنت ولست أرضى أحدًا يداوينى غيرك، وجئت معى بكذا وكذا من الأموال فخُذ منّى، على أن تعالجنى، ما تشاء! فقال له الدكتور: وأنت إذا أعطيتنى ما تشاء فلن أداوىَ علتك لأنها ليست من عملى ولا تتصل بفنّى إنما أنا رجل جرّاح؛ فألحّ الرجل وتضرَّع ، فلما أعياه أمره قال له : اسمع ياعم، لو تلف (كالون) بيتك هل تجىء له بنجار أم بكوالينى؟ فقال بل بالكوالينى، فقال له: مرضك هذا أنا لا أعرف فيه ، قال الرجل : فماذا تصنع إذًا؟ قال له : أنا أفتح لك كرشك، أكسر رجلك، أقطع رقبتك!. وهذا الذى أعرفه . فانصرف الرجل مقتنعًا راضيًا!.

ولست أحاول أن أصف لك قَدْر الدكتور على إبراهيم ولا نبوغ مِبْضعه، فَحْسبه أن سلَّم الناس إجماعهم له بأنه مفْخَرة من مفاخر هذه البلاد. ولقد قلتُ لأحد الأطباء يومًا: صف لى بَرَاعة الدكتور على إبراهيم؛ فقال لى: أعرف أنك تحب الغناء وتهوى الموسيقى، ولو كان لك عِرْق فى فن

الجراحة وقُدِّر لك أن تشهد «عملياته» لوجدتَ لأناملِه من الطرب ما لا تجده لأنامل «العقّاد» وهى منطلقة فى أوتار قانونه الحَنَّان الطروب.

على أن نبوغه لم ينته إلى حَذْق الطب والمهارة البارعة فى فنّ الجراحة، بل إن له فى كثير من «العمليات» ابتكارات من ذلك النوع الذى يؤثر ويُدرس ويُحدث فى نظريات الفن أحداثًا، وإنهم ليَرْوُون عنه جهدًا عظيمًا فى متابعة الحركة الطبية فى العالم فهو كثير القراءة والنظر فيما يخَرج فى هذا الباب من المجلات والكتب والرسائل، حتى إذا وقعَت له نظرية حديثة فاستوت لذهنه أقدم على تطبيقها بنفسه، فكان نجاحُه دائمًا كعزمه قويًا جليلاً.

وبعدُ فإن جهلاً أن يظُن امرؤ أن للعبقريات فى العالم أسبابًا معينة معروفة، فما كان هؤلاء العبقريون أصحّ من غيرهم أبدانًا، ولا أكثر قراءة ولا أعكف من سواهم على الدرس والتجريب وتقليب النظر، ولا أطلَبَ ممن عداهم لتلك الأسباب المفروضة للبراعة والتبرّيز، فلقد كان البُحْتُرى شاعرًا فى سن العشرين كما كان شاعرًا فى سن السبعين، وكان ابن المقَفَّع كاتبًا وهو ابن الثمانى عشرة كما كان كاتبًا حين قُبِض وهو فى الثامنة والعشرين، وكان رفاييل مصوِّرًا رائعًا يوم جالت يده بالنقش كما كان مصوِّرًا فى غاية عمره، وكذلك كان على إبراهيم جرَّاحًا أول مَنْجَمِه كما هو جراح اليوم؛ إنما هى مواهب من الله تعالى يتخيَّر لها من يشاء من عباده لم يتكشَّف العلم عن كنهها ولا سببها إلى اليوم.

وإنك لتجد الطبيبَ يُصيب دائمًا فى تشخيص العلة إلا قليلاً ، وإنك لتجد الآخر يُخطئ دائمًا فى تشخيصها إلا قليلاً، ووسائلُهما فى الفن واحدة، وحظهما من العقل والعلم وسائر الأسباب متكافئة! . ذلك أن هنالك حسًّا دقيقًا غير تلك الإحساس المعروفة يكاد يتفطّن به من آثره الله به إلى مَطَاوِى الغَيب، فيقع الشىءُ فى نفسه يحسبه إلهامًا لأنه لا يعرف له علة ولا يحيط منه بسبب، ومن هؤلاء الذين اصطنعهم الله لهذه الموهبة الدكتور على بك إبراهيم.

ومما يذكر له أنه فى سنة ١٩٠٢ لُوحظت كثرة الوَفَيات فى قرية موشة،

من أعمال مديرية أسيوط، فندبه مدير الصحة، وكانت له به ثقة عظيمة، ليُحقق الأمر، وكان بعدُ فتى ناشئًا، فأدرك أنها الكوليرا، فكتب إلى الصحة بهذا وأرسل رَجيع بعض المصابين لتحلله، فلم ير «التحليلُ» أثرًا للكوليرا، فراجعها وأرسل غيره، فكان الأمر كذلك ، فصمَّم الفتى واستبدّ من ناحية، وصمم أطباء مصلحة الصحة وكيماويوها من ناحية أخرى؛ ثم أبى العلم وأبى التحليل الصحيح إلا أن يُظهر رأىَ على إبراهيم على تلك الآراء جميعًا، وكانت الكوليرا التى عصفت سَنة ١٩٠٢ بالبلاد عصفًا شنيعًا، والتى أبلَى هو فيها، حتى تقلّص ظلها، بلاء عظيمًا.

وسبحان من يقرُن قضاءَه باللطف، فإنه فى الوقت الذى بُثَّ فيه هذا الترام فى شوارع البلد وأزقّته يدكّ الرءوس ، ويحصد النفوس ، وأُطلقَتْ آلاف الأوتوموبيلات، واللوريات ، والموتوسيكلات، تَقُدُّ المتون، وتبعج البطون، وتأبى «الشفقةُ» على ساقتها أن يرسلوها على خلق الله قبل أن يحشوا معاطسهم بالكوكايين، والهاروين، وغيرها من البلاء المبين، حتى «يغيبوا» عن مشاهدة ما تَنسف سياراتهم من الهام، وما تَفْرِى من الأجسام ، وما تُرسِل على الناس من الموت الزؤام ! ولا تنس، جعل الله لك فى كل خطوة ألف سلامة ، تلك السيارات العاصفة، مالها من دون الله كاشفة ، وتيك التى يتخذها أبناء الذوات ومن انحدرَت إليهم النعمة. وهى تنطلق انطلاق السهام، فى أجساد الأنام، كأن مهمتها فى هذا البلد صنعُ أرامل وتخريجُ أيتام، سبحان الذي حين يبتلى البلدَ بكل هذا يُرسِل فيه الدكتور على إبراهيم، يجمع من أعضاء الناس ما تفرّق؛ ويَرُمّ من أحشائهم ما تخرّق، ويَضُمّ من أشلائهم ما تمزق، حتى أوشك أن يقطَع على عزرائيل، رزقَه من فنه الوبيل!

ولقد رأيت صديقًا لى من أهل الأخطار لا يرى الدكتور على إبراهيم يجُوز فى طريق أو يغْشَى ناديًا إلا صفَّ قدميه ووقف (زنهار) ورفع يده بالسلام العسكرىّ، فقلت له فى هذا فقال: «علشان ياخد بالُه منى يوم أُحمَل إليه» فقلت له : يا لك من رجل مبالغ، فكان جوابه: على كيفك لك ترمواى يترَدّ عليه!

وجَلَّ من تعالى على النقص وتنزَّه عن العيب، فإن جرَّاح الشرق كله لا يملك مستشفى يليق بجلالة محله ولا بآلاف «المجاريح» الذين يطلُبون مستشفاه من كل مكان: فقد سُلِّطت عليه شهوة اقتناء «السجاجيد» وألوان الطُّرف وإحراز ما أبدعت يد كل فنّان، وما افتنّ فيه كل صَنَع حُسَان، ومِن كل ما رثَّت فيه العصور ونَصَل عليه لون الزمان، من دُمًى وتماثيل، وتصاوير وتهاويل، ونمارق ووسائد، ومعاضد وقلائد، وخُشُب منجورة، وإحجار محفورة، ومزاليج أبواب، وسروج دواب، وشُرفُات دور، و«شواهد» قبور، وضبَاب مصبَّرة، وجرار مكسَّرة إلخ: ولو نَفَض عنه بعضَ ما يُحرزه من ذاك لابتنى مستشفى يليق حقًا بشيخ الجراحين! على أننا نترك الكلمة فى هذا للمجلس الحسبى !!

وبعدُ فإن حقًا على أهل مصر جميعًا، ومياسيرهم بنوع خاص، أن يسجدوا لله تعالى سجدة الشكر كلما أطلَّت شمس الصباح عليهم اغتباطًا بأن على إبراهيم غير وَلوع بجمع المال، فلو كانت لغيره تلك الأصابع التى «تسرق الكحل من العين» لآثر أن يكون «نشالا» . إذًا والله لسلّ الآلاف، ولأحرز أكثر مما تُجدِى «الجراحة» أضعاف الأضعاف، ولما أَبْقَى فى جيب على كيس؛ ولا هنِئ الناس بكريم ولا نفيس؛ ولكن قدّر فكان ، وسبحان من «يعطى الحلقة للى بلا ودان» !!

obeikandl.com

من أراد الدنيا فعليه بالعلم ،

ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ،

ومن أرادهما معا فعليه بالعلم

obeikan.com

obeikandl.com

أحمد لطفى السيد بك [1]

لا أدرى، أعلْمه أوفر من عقله، أم عقلُه أوفر من علمه؟ إلا أنه أَوْفَى بهما كليهما على الغاية. وهو عالم واسع العلم، وعاقل واثق العقل، وذكىٌّ متسعِّر الذكاء ، له عينان حديدتان كأنما تمدّهما أشعة (إكس) فلا يكاد يقوم بينهما وبين ما تريدان حجاب؛ وإنه ليحاول أن يستُر عنك إدراك هذا منه بمنظاره الأسود؛ كما حاولت الطبيعة أن تكتُمه على الناس بما ضيقت فى مَحْجرَيهما تضييقا!

وأحمد لطفى السيد قد بان خطرُه من يوم نجَم، فكان طالبًا فى مدرسة الحقوق لا تَعنيه مُدارسة القانون المدنى، ولا يحتفل لقانون تحقيق الجنايات ولا يهمه أين تقع (نمرته) من سلك التلاميذ فى امتحان غاية العام قَدْرَ ما تَعنيه مُدارسة المنطق والفلسفة وعلوم الاجتماع؛ على أنه كان مُجَلِّيًا فى الأولى كما كان مجليًا فى الثانية ، وبهذا خرج لطفى على غير ما يخرج سائر التلاميذ، خرج وله عِرْق فى الحكمة والمنطق وسائر علوم النظر لا يتَّسِق فى العادة لإخوانه «الحقوقيين».

دَرج مَدْرج نُظَرائه فى الحياة العملية حتى كان نائبًا أو رئيسَ نيابة؛ على أن خَطْبه فى ذاك لم يكن جليلاً، فقد انصرف همه، إلا أقله ، إلى تحصيل

---

(١) هو أحمد لطفى بن السيد أبى على ، ولد فى قرية «برقين» بمركز السنبلاوين بمصر، ودرس الحقوق وتخرج من مدرستها فى القاهرة سنة ١٨٨٩، وعمل بالمحاماة، ثم شارك فى تأليف حزب الأمة، وكان من أعضاء الحزب الوطنى القدماء ، ومن أعضاء الوفد المصرى ، ثم تحول إلى الأحرار الدستوريين ، عين مديرًا لدار الكتب، فمديرًا للجامعة، ثم وزيرًا للمعارف، ثم وزيرًا للداخلية ، فالخارجية، اختير رئيسًا لمجمع اللغة العربية واستمر فيه إلى أن توفى سنة ١٩٦٣م ، وهو معروف بأستاذ الجيل، له أبحاث متعددة ومصنفات كثيرة. انظر الأعلام (١/ ٢٠٠).

العلم والأدب وأخذِ العقل بالتدبير وصدق النظر ، وأخذِ اللسان والقلم بفصاحة القول وقوّة البيان بالحديث والخطابة، وبالترجمة والتأليف، وتارةً بالكتابة فى الصحف فى ألوان الموضوعات.

ثم كان حزبُ الأمة وكانت «الجريدة» وتهاوت الأنظار على من يقوم بها كِفاءً لمهمِّها الجُسام، فوقعت كلها عند لطفى السيد، وتولَّى الجريدةَ فكان كاتبًا لا يُبارى كما كان صحفيًا لا يضارَع، وبانت له موهبة جديدة أحوج ما يكون إليها امرؤ يتولَّى تلك «الجريدة» فى ذلك العصر، وهى شِدّة الطبع والصبر على الخصومة وطول الكفاح. وناهيك بمن يَصْمد للقتال إذ شيخُ الكُتَّاب «على يوسف» يتولاه عن يمينه ، وإذ فتى الوطنية «مصطفى كامل» ينقضُّ عليه أحيانًا من شماله ، وإذ أَمامَه، ولا أسمِّى، من لا يُشَقّ فى الكيد غُباره، ولا تُصْطَلَى فى الجُلَّى ناره، ومهما زعموا أن وراءَ حزب الأمة كانت قوةٌ تعضده وتشدّ متْنَهُ، فما كان من شأن هذه القوّة أن تُقرِّب إلى هوى الناس جريدةً، وكانت فى الوقت نفسه تتحدّث على أمانى البلاد وتطلب أن يسودَها حكم الدستور، وإن طلبتْه دستورًا «متواضعًا» كما كان يهتف أستاذنا الجليل - ومع هذا فقد تهيأ لمقدرة لطفى أن تستدرج الخاصة وأشباه الخاصة فى عامة البلاد ، وأضحت دارُ «الجريدة» منتدى أهل العلم والأدب والرأى الصحيح ينتجعونها من كل مكان.

لم يكن لطفى فى سنيه تيك صحفيًا فحسب، بل كان أستاذًا يشرع فى العلم والفلسفة وفنون الاجتماع، وكان له طلاب من الشباب أهل المواهب والذكاء؛ فما راقك اليوم من علم فلان، وما أعجبك من عقل فلان، وما راعك من أدب فلان ؛ فأولئك ، فى الحق، أكثرُهم من صنعة لطفى السيد فى تلك الأيام.

وهو رجل له، أو كانت له ، شخصية قوية : له نَظَرُه، وله تدليله ، وله أُسلوبه الكتابى، بل وله إيماءتُه وحديثه، وإن كثيرًا ممن كانوا يطوفون به ليَقلِّدونه فى كل ذلك ، فمن أعيا عليه تفهُّم علمه وأدبه راح يقلّده فى شكله ودَلِّه ، ويحاكيه فى لهجته ومَخرج حروفه.

ومن ظريف ما يروى فى هذا الباب أن فتى من أبناء الحكَّام أصحاب لطفى كان يُعْجَب به هو الآخر طوعًا لإعجاب الناس، فكان جُهدُ حيلته فى بلوغ بعض شأو لطفى أن ينسلَّ إلى حلاّقه فيسأله أن يُسوِّى له رأسه كما يفعل بشعر الأستاذ سواء بسواء، ثم يغدو على الناس بعد ذلك يقبِض صوته ويُرسله، ويَلْويه ويَعْدِله، ويُفككه ويُلحِمه؛ ويرققه ويفخِّمه، ويَثْنى عطفيه من زَهْو واستكبار، ويهزّ كتفيه من استنكاف واستنكار، ثم يعود إلى نفسه فيراها قد استوت «لطفى السيد» فى غير جهد ولا عناء!

وما دام العلم والفلسفة كلها إنما تتصل «بالحلاقة» فلماذا يقف صاحبنا عند هذا الحدّ؟ وإنى لأراه يُغذّ [1] السيرَ فأسأله إلى أين يا فلان؟ فيقول: إلى الحلاق فقد اعتزمت اليوم أن أحلق «مونتسكييه» أو «أوجست كونت» أو «چان چاك روسو» أو غير أولئك من ضخام الرجال، ومثل هذا عندنا ، لو لاحظت الناسَ كثيرٌ !

ونعود إلى الأستاذ لطفى فقد ظل فى كفاحه وجِلاده، إذ خاصةُ الناس كلَّ يوم عليه فى إقبال، حتى ضعضعت أفاعيلُ السياسة حزبه فكان آخرَ من ألقى السلاح. ثم عاد إلى النيابة فلم يتصل شأنه فيها بجلالة شأنه حتى كانت سنة ١٩١٩ فضحّى بالمنصب فى سبيل الثورة، وانتظم فى الوفد المصرى عضوًا فكان فيه عنصرًا قويًا، وكان أداته فى أكثر ما يُخرج للناس من بيان مكتوب. وانطلق مع الوفد إلى أوروبا ولبث معه عاملاً نافذًا، ما شاء الله أن يلبث، ثم عاد مع من عادوا أوَّلَ الأمر. وتظهر بوادر الشقاق فيبدو له أن يتحفَّظ فيتحفَّظ، ثم يستفحل الخطب فيَهديه عقله إلى أن يتسلّل إلى داره فى رفق فيفعل، فيبقى حِلْس [2] بيته سَلْما كله حتى يُطْلَب

(١) يغذ السير: يسرع.

(٢) يمكث فيه لا يبرحه.

لما هو أليق به وأكرم، فيتولى دار الكتب المصرية ينظر فى شأنها بعضَ اليوم، وينظر فى شأن العلم سائرَه؛ وكان من حظ «نصف العزلة» هذه ، أو من حظ العلم منها، أن أتم ترجمة كتاب الأخلاق «لأرسطاطاليس» «إلى نيقوماخوس» ؛ وما كان الإبداعُ فى ترجمة هذا الكتاب بأبلغ من الإبداع فى الإقدام على إخراجه فى مثل تلك الأيام!!

ولقد فاتنى أن أقول لك إن هذا الرجل الذى ضحى بالمنصب فى سبيل الثورة، قد عاد فضحى بالثورة فى سبيل المنصب، فأصبح كما يقول أصحاب الميسر «كِيتْ» لا له ولا عليه . وإلى هنا ينتهى عندى تاريخ ذلك الرجل العظيم!

وعساك تتحدانى بأنه أصبح الأستاذَ الأعظمَ الرسمى فى كل البلاد من يوم أصبح «مدير الجامعة» فأجيبك بأنى «ما عنديش خبر» بشىء من هذا كلِّه؛ وكيف تريدنى على أن أصدّق أن الأستاذ لطفى السيد كلَّه أصبح مدير الجامعة المصرية فى حين لم أسمع بأنه أفاض على الطلاب درسًا أو ألقى محاضرة فى العلم واحدة؟ فإن كنت تريد «بمدير الجامعة» ذلك الموظف الذى ينكسر همه على طلب كُسَى الحجاب والسُّعاة، و«تسوية» أجور البوابين والجناينية و«العرض» لوزارة المعارف عمن يلزم ترقيتُهم من جماعة الكتاب، فليس ذلك بالرجل الذى يعنينا فى مثل هذا المقال!

الحق أن لطفى أستاذى، وإنه ليسوءنى أن يختم حياته فى هذه «الجامعة» من حيث يجب أن تبتدئ الحياة القوية لعظماء الرجال !

والواقع أن الداء «الأجنبى» قد تفشّى تلك الجامعةَ فى حين لم نر لذلك «الحكيم» قولاً ولا عملاً ولو كان هذا المقام مقام تفصيل فى مثل هذا الباب لباديّت أستاذى العظيم بكثير!

ولطفى بك يجمع إلى عذوبة الروح عذوبة الحديث، وهو أديبٌ تام يحفظ صَدرًا عظيمًا من متخَيَّر شعر العرب ومأثور أقوالهم ، إلى فقه فى متن اللغة ورعاية لدقائقها، وبخاصة إذا كتب أو حاضر أو خطب. وله فى أبواب البيان والترسُّل أسلوبٌ خاص به حاول كثير من الكتاب أن يتكلَّفوه فانقطعوا دونه، وهو شديد الحرص على أن يُريَك أنه لا يعبأ بتجويد العبارة ولا يتحرَّى اللفظ الرشيق إذ هو فى الواقع يَجهَد فى هذا ، رغم عنايته بالمعانى والتكثُّر من إيراد مصطلح العلماء، ويتعمَّل له إلى ما دون التعسف.

وهذه الصفة فى لطفى السيد إنما تتصل بأخلاقه جميلة، فهو رجل قد أخذ نفسه من كل أقطارها بألوان التكلف: يتكلف فى مَرَاح الشباب ثقل الشيوخ، ويتكلف فى مجلس اللهو هيئة الجد، ويتكلف عدم الاكتراث لأعظم ما يكرثُه من الأمر، بل إنه ليتكلف الكلام «بإلحاف» إذ هو قد نجم فى بيئة لم يعد يرتبطها بأهل الريف سبب!

نعم لقد أخذ نفسه بهذا التكلف كلِّه حتى أصبح له طبعًا وسجية، وأكبرُ ظنى أنه لو شاء يومًا أن يُرسل نفسه على سجيَّتها لتكلف فى هذا كثيرًا.

ولطفى بك أوّل من رفع راية «الديموقراطية» فى مصر فى هذا العهد الحديث؛ وهو الذى نفخها فى روح الشباب وأجرى كلمتها على ألسنتهم؛ وعُصارة الحزب الديموقراطى من تلاميذ لطفى ولا جدال، وإنك لتراه مع هذا أرستقراطى الفكر، شديد الأَثَرة للرأى! ولقد تخالفه إلى غير وجهه فيأبى إلا أن يغلبك، ولقد يغلبك بمحض الجدل يتحرَّف فيه تحرُّفًا؛ وهو رجل يملك حجته ويعرف كيف يصول بها عليك فى الحِوار فإذا كنت أنت

الآخر جدلاً متمكنًا من حجتك وأحسّ منك السطوةَ برأيه رأيت فى وجهه تغيرًا وآنست من نفسه عنك انقباضًا.

ولا أدرى أكان هذا من أثر تمكُّنه من نفسه وشدة إيمانه بحقه وكراهته أن تنزل من الرأى على باطل ؟ أم أن للمسألة وجهًا آخر؟!

وإذا كنت لم أقع من لطفى على أجلّ فضائله، فلعلى قد تهدَّيت إلى أجلّ مكارهه إن كان ما هتفتُ به يُعَدّ فى المكاره، وإنى لأرجو بهذا أن أُصيب رضاه كاملاً. ولقد دخل رجل من الناس على بعض الحكماء فأقبل عليه يمدحه ويعدّد محامده، فقال له الحكيم: يا هذا أولى لك ؟ وإنَّ إكبارك لما ترى فىّ من فضل لدليلٌ على أنك لا ترانى كفئا له ، فلو قد دللتنى على هَنَاتىَ! فتلك التى ليست بكفء لى.

أسأل الله تعالى أن يعيننا على خدمة أسَاتيذنا وأحبابنا فنحن فى حقوقهم من هذه الناحية جِدّ مقصّرين!!

obeikandl.com

لا أبالى إزاء نفع الأقارب والأصهار ،
أجـف الـنيل أم ذوت الثمـــار!

obeikandl.com

إسماعيل سرى باشا [1]

طويل القامة، كبير الهامة، عريض «الوجهة» ناتئ الجبهة، ضخم الأنف ، مرسل اللحية والحاجبين، له عينان متحيرتان، دائمتا الحركة والدوران؛ نفضت الطبيعة على هيكله كل جلال الشيوخ ويأبى هو إلا أن ينفض على لسانه كل خفة الشباب. فإذا أنت رأيته كدت تعلّق نفسك من روعة وإكبار: جلالة علم فى جلالة منصب فى جلالة مشيب. حتى إذا سمعته يخَوض فى بعض من لا يحبهم ويستريح إليهم لم تكدْ تملك نفْسك من الاستنكار أو ما هو أشدُّ من الاستنكار!

وسرِّى باشا مهندس بارع ، كفء، فى بابه ، لكل عظيمة؛ وهو شيخ المهندسين المصريين وإمامُهم غيرَ مدافَع. وإن له فوق هذا لشهرةً عالَمية، فقد دفعه خَطَره وسَعَةُ علمه وصحةُ تقديره وقوة ماضيه إلى أن يُسْلَكَ بحق فى زمرة كبار المهندسين فى العالم.

وسرِّى باشا وُلد فى عائلة رقيقة الحال فى قرية (ريدة) من أعمال مركز المنيا، ونزح والده إلى قَصَبة ذلك الإقليم لا يتكئ إلا على بدنه فيما يكون أرَدَّ على شَمْله، فاستُخْدِم فى ديوان المديرية فى عمل لا يتّسِق لذكائه ولا لقوة استعداده، فتطلّعت نفسه إلى ما هو أولى به وأجدى؛ ولم يُلْهِهِ عمله المُضْنِى عن أن يتعلم القراءة والكتابة، ومازال دائبًا حتى أحسنهما

---

(١) هو إسماعيل سرى باشا بن محفوظ مغربى، مهندس مصرى المولد، حجازى الأصل، يرفع نسبه إلى الصحابى الجليل دحية الكلبى، ولد إسماعيل سرى بقرية «ريدة» مركز المنيا بمصر، وتعلم الهندسة بالقاهرة وباريس، وتمرن فى لندن، وكان يعرف بإسماعيل محفوظ، وبلقب بسرِّى، تدرج فى الوظائف إلى أن كان وزيرًا للأشغال الحربية، وكان أيضًا من العلماء. له كتاب «تذكرة المهندسين» وكتاب «الدرر البَهية فى التجارب الكيماوية» اختير رئيسًا للمجمع العلمى المصرى ، وتوفى بالقاهرة سنة ١٩٣٧ . انظر الأعلام (١/ ٣١٤).

وحتى عُيِّن كاتبًا فى مديرية الفيوم؛ ولأمر مّا نُفِىَ عمدة المنيا إلى السودان فعين بدله محفوظ أفندى، وأدخل ولده «إسماعيل» فى مدرسة المنيا مع حسن فتحى الذى صار بعدُ مفتشًا للرى؛ وظهرت مَخَايلُ النجابة على ولده هذا إسماعيل، وبَرَعَ أقرانه ؛ وما برح له السبق عليهم حتى اصْطُفِى فيمن اصطفتهم الحكومة «للإرسالية» ؛ فمضى إلى فرنسا واتصل بكلية «سنترال» حيث درس الهندسة وخرج منها بأعلى شهاداتها.

وعاد إسماعيل سرى، فاتصل بخدمة الحكومة مهندسًا صغيرًا؛ وتدرَّج بكفايته في مناصب وزارة الأشغال حتى أصبح مفتشًا «لعموم المشروعات» ؛ ومن ذلك اليوم رَنَّت الآفاق باسم إسماعيل بك سرى فى المهندسين العظام.

وفى الحق أن ما مُتِّع به كَبِدُ الصعيد (مديرية المنيا وطرفا أسيوط وبني سويف) من ريٍّ صيفى فإقبال زرع فسحة ثروة، إنما كان من صنعة إسماعيل سرى، مهما عَدُّوا على تلك «المشروعات» من العيوب.

وفى الحق أيضًا أنه - بعد أن طُويتْ من صحيفة وزارة الأشغال أسماء المهندسين المصريين حين أَوْدَى الرَّدَى بعلى باشا مبارك وإسماعيل باشا محمد وبهجت باشا وأشباههم من النَّوَاظِير الأوالى - كان إسماعيل سرى أولَ من بَعَثَ على الألسن أسماء المصريين مع ديبوى ووليم جارستن وأكفائهما من المهندسين الإنجليز.

ولو قد تُرِكَ إسماعيل باشا سرى فى عمله الفنّى البحت لأجْدى بعلمه على البلاد كثيرًا؛ ولكن الرزيّة كلها فى المناصب، وقاتل الله المناصب، فقد قُلِّدَ الوزارةَ، والوزارة سياسةٌ أكثر مما هى فنّ ، والرجل لا يَحْذق السياسة ولا يفهم منها إلا القدرَ الذى يعصم عليه منصبه ويستديم له أبَّهة الوزارة وما إليها من الراتب ، والجَدْوَى على الأولاد والأقارب.

ويبالغ صاحبنا فى الإخلاص لهذا المعنى ويُفْرِط فى الحرص عليه إلى حدّ أن يُسَخِّر، إذ دعت الضرورةُ، كلَّ ما أُوتى من علم وفن لخدمة السياسة ولو أودى فى هذا السبيل، بكل وادى النيل؛ حتى ظفِر فى عهد اللورد

كتشنر، إن عدَّ هذا من الظَّفَر، بتلغراف تأييد من حكومة إنجلترا يضمن له السلامة والنغنغة» فى المنصبِ والجاه على طول الزمان!

وانى لأعرف طائفة من المصريين كانوا، ولعهم مازالوا، يراءُون أهلَ السلطة من الإنجليز ويتجمَّلون لهم ويظاهرونهم بالمودّة والعطف استخراجًا للمنافع، إذ قلوبهم لا تنطوى من ذاك على كثير. أما إسماعيل سرى باشا فهو لا يمارى القوم فى هذا ولا يرائيهم ؛ فإنه مخلصٌ الحب لهم صادقُ الصَّبابة فيهم ، يواليهم بالهوى فى سره، كما يتشيّع لهم فى جهره، لا يتحرَّج فى ذلك ولا يتأثّم، والإخلاص ، لو علمت ، فنون!

ومن أظهر صفات هذا الرجل أنه وَصُولٌ لِرَحِمِه، دائبٌ جاهدٌ، فى غير مَلَل ولا سَأَم، على كل ما يعود بالخير على ولده وأصهاره وسائر عشيرته ؛ ولو مُدَّ له فى الحكم وبُسِطَ له فى السلطان «لَرَفَت» جميع موظفى الحكومة، وجَمَع إلى كل فتى من أهله ٤٥٧ وظيفة فى آن واحد، حتى يستطيع أن يقصر وظائف الدولة عليهم فلا يتولّى واحدةً منها خارجٌ عنهم. وإن له فى دَسِّهم فى الوظائف والقفز بهم إلى عُلْيَا المناصب لأحاديث تُجْمَعُ وتُنْشَر، وأفاكيهَ تُرْوَى وتُؤْثر؛ وحسبك أن تردّد النظر فى دواوين الحكومة وسائر مصالحها لتقع فى كل واد على أثر من ثعلبة . ولقد بدا يومًا لبعض الحَسَدَة أن يجمع ما يجبيه «آل سرى» من أموال الدولة ، فخرج له منها ما يقوم بنفقات مصلحة كاملة (وعين الحسود ، فيها عود) حصنتُ آل سرى برب الفَلَق ، من شرّ ما خَلَق، ومن شر غاسقٍ إذا وَقَب، ومن شرّ النّفّاثات فى العُقد، ومن شرّ حاسدٍ إذا حَسَد.

ومن طريف ما يروى له ، وكلُّ ما يروى له فى هذا الباب طريف، أن وزيرًا كان من زملائه له قريب فى وزارة الأشغال فسأله أن يرقيه إلى بعض مناصبها الخالية لأنه «قد استحق الترقية» فتثاقل عنه سرى باشا وتعذَّر عليه ، وتوسّط فى الأمر بعض إخوانهما من الوزراء فقال لهم معالى «وزير

الأشغال» ولماذا أرقِّى له قريبه وعنده قريبى «فلان» لا يرقيه! فقيل له ولكنه لم يَحِنْ بعدُ أوانُ ترقيته ؛ قال : إذن نتربَّص بقريبه حتى يجىء الدور على قريبى، وتعلَم ، أيدك الله ، أن صاحب الحاجة أرعن، فبادر الوزير الآخرُ بترقية قريب سرى باشا بالاستثناء فى سبيل ترقية قريبه هو بُحكْم الدور!

وجاءه مرةً أحدُ زملائه الوزراء من هذا الباب فسأله أن يرقّى أحد صنائعه درجةً على أن يرقى هو أحدَ أقرباء الباشا فى ديوانه درجة، فدار بذهنه «الرياضى» الكبير فى «الحسبة» فرآها «تفرق» ٢٤٠ قرشًا فى كل شهر فتوقّف أو يُوَفَّاها «على داير القرش» ، وتَعَاصَى الأمرُ ،وتعذَّر الحل، وأخيرًا وبعد طول محادثات ومفاوضات توسّط أحد الوزراء أيضًا فى الأمر على أن يزيد قريبًا لسرى باشا فى وزارته هو مائتى قرش ، على أن هذا كل ما تبلغه طاقته ويدخل فى جهده ، وذلك كله تفاديًا من قوع أزمة وزارية (Crise Ministerielle)، وبعد لأى رضى سرى باشا بهذا الحل محتسبًا عند الله ٤٠ قرشًا فى كل شهر : كانت - لو أن فى البلاد عدلاً وإنصافًا- تعودُ على بعض الولد أو الأصهار أو الأقرباء، بشىء، ولو قليل، من اليسر والسعة والرخاء!! وكانت تضحيةً من نفس سرى باشا هائلة استحق بها أن يقام له تَمثال، يخلَّد به «المثلُ الأعلى » للتضحية والإيثار على تطاول الأيام والليال!!

من أطاق التماس شيء غلابا واغتصابا لم يلتمسه سؤالا

obeikandl.com